[في سنة ١٩٥٧م بشَّر الفيلسوف « دافيد هارتلي » بمذهب « تداعي المعاني » ، وفكرة التداعي : أن للفرد عواطف عليا ، وعواطف دنيا ، والعواطف العليا تتداعى من العواطف الدنيا ؛ فالفضيلة يحبها الناس لذاتها لا لغيرها كالصدق نحبه لأنه صدق ؛ ولسنا نحبه لأنه ينفعنا أفراداً، ولكننا كذلك كنا نحبه في أول الأمر .. والبخيل يحب المال لذاته.. أي ليكدِّسه دون أن ينتفع به، وكان يحبه في البداية لأنه وجده أداة لتحقيق مصالحه، ثم تجمعت حول المال ذكريات لذيذة استحوذت على تفكيره ؛ فصار يطلب المال لذات المال ؛ فهذه الذكريات هي المعاني المتداعية .. ولقد أمسك فلاسفة التربية بذيول هذه النظرية ؛ فقال « جون ستيوارت مل » : «عند تربية الطفل يجب تنشئته بحيث تقترن في ذهنه مصلحته الشخصية بمصالح الآخرين ، وسينتهي أمره بمقتضى قانون التداعي إلى أن ينشد النافع لمجرد أنه نافع .. بصرف النظر عما يُحتمل أن يحقق له من منافع ذاتية » .

قال **أبوعبدالرحمن** : حبُّ البخيلِ المالَ لذاته ليس عاطفة عليا خُلقياً، ولكنه عاطفة عليا بمعنى أنه أعم من العاطفة الدنيا المحدودة .. وتربية الشرع المطهَّر تربط الطفل بأمرين معاً : أولهما منفعة الآخرة الأبدية في امتثال الأخلاق الشرعية ، وثانيهما مصلحة الامتثال دنيوياً التي هي بهجة وسرور يُحدِثه الإيثار، وإسعاد الآخرين ؛ لأن ذلك مطلب لذيذ للمسلم ، وهو جزء من الحياة الطيبة التي وعدها الله المؤمنين في حياتهم الدنيا .]

بسم الله الرحمن الرحيم

* * *

[قال الجاحظ : « وذلك كقولهم : من أحيا أرضاً مواتاً فهي له »[٢] .

قال أبوعبدالرحمن : القائل هو الرسول ﷺ ، وهو حديث تعرفه العجائز ؛ فكان غريباً من الجاحظ مثل هذه الغفلة !!

* * *

وقال وديع البستاني « انقسام الشعوب إلى ٧٢ ملة قول جرى مثلاً في بلاد الفرس ، وقد ذكر أحد شراح الحديث كلاماً مروياً عن الرسول [ﷺ] مآله : أن أمتي ستنقسم إلى ثلاث وسبعين ملة .. إلخ »[٣] .

قال أبوعبدالرحمن : عجيب جداً أن يشغل هذا الحديث الشريف حيزاً كبيراً في المباحث الحديثية ، وأن يؤلف المسلمون على ضوئه كتبهم في الفِرَق ، ثم يقول البستاني: «ذكر أحد شراح الحديث» .. ألاَ ما أسخف السطحية في مثل هذا؟!.. ثم إن الافتراق افتراقُ نِحْلة لا مِلة .. وأما مِلَلُ الشعوب فلا تُحصى .

* * *

كان أبوبكر ابن الدهان النحوي حنبلياً ، ثم شافعياً ؛ لأنه يدرس في النظامية ، وقد شرط الواقف أن يكون المدرس شافعياً.. فهو إذن من الحنافشة ، وبداية هذا النحت لمحمد بن حمد بن خلف ؛ فقد ذكر الذهبي : أنه تحنبل ، ثم تحنف ، ثم تشفع؛ فلُقب بحنفش[٤] .

---

(٢) الحيوان ١/ ٢ .

(٣) شرح رباعيات الخيام ص١١٧ .

(٤) ميزان الاعتدال ٣/ ٥٢٨ . [

ح دار ابن حزم للنشر والتوزيع ، ١٤٢٥هـ
فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر
الظاهري ، أبوعبدالرحمن ابن عقيل
معنى أن الفكر إسلامي / أبو عبدالرحمن ابن عقيل الظاهري
١٢٨ص ؛ ٢٤ سم
ردمك : ٥-٦٧-٧٩٥-٩٩٦٠
١- الفكر الإسلامي أ- العنوان
ديوي : ٢١٤ ١٤٢٥/٧٦٥٩
رقم الإيداع : ١٤٢٥/٧٦٥٩
ردمك : ٥-٦٧-٧٩٥-٩٩٦٠

* * *

[قال محمد خليل الله في كتابه مأساة بنغلاديش : « قتل الجيشُ الهندي الذي كان يقوده يهود عشرة آلاف عالم مسلم بعد انتصاره على جيش باكستان عام ١٩٧١ م ، وقتل مئة ألف من طلبة المعاهد الإسلامية وموظفي الدولة ، وسجن خمسين ألفاً من العلماء وأساتذة الجامعات ، وقتل ربع مليون هندي هاجروا من الهند إلى باكستان قبل الحرب ، وسلب الجيش الهندي ما قيمته (٣٠) مليار روبية من باكستان الشرقية التي سقطت من أموال الناس والدولة »(٥) .

* * *

(٥) قادة الغرب يقولون : دمِّروا الإسلامَ ، أبيدوا أهلَه لعبدالودود يوسف (جلال العالم) / ص٢١ دار السلام بمصر / ١٤١٨هـ .
]

* * *

الطبعة الأولى ١٤٢٦هـ/ ٢٠٠٥م

مكتبة ودار ابن حزم للنشر والتوزيع
ص.ب : ٢٢٥٦٦ الرمز البريدي : ١١٤١٦
الرياض- شارع السويدي العام- هاتف وفاكس ٤٢٧٥١١٧/ جوال ٠٥٠٣١٢٢٩٣٥
المملكة العربية السعودية

الفكر الإسلامي
(معرفةً ، وأدْلَجة ، وتاريخاً)
(١)

السفر الأول / القسم الأول

معنى أن الفكر إسلامي

القسم الأول :

[وإذا مضـى لـلمرء مـن أعوامـه   خمسون وهـو إلى النُّهَى لم يجنح
ركـدت عليه المخزيات وقلـن قد   سـاعدتنا فـأقم كـذا لا تـبرح
وإذا رأى الشـيطان غـرة وجهـه   حَيَّا وقد فَدَّيتُ من لم يفلح[٦]]

ألفه
أبو عبدالرحمن ابن عقيل الظاهري
(محمد بن عمر بن عبدالرحمن بن عبدالله العقيل)
ـ عفا الله عنهم ـ

(٦) البصائر والذخائر ١/ ٤٧٧ ، لأبي حيان التوحيدي .

كذبة صوفية ، وإلحاد :

تسْألُ أحد الصوفيين : من أين جاء بالذكر الذي يُردِّد فيه المريد كلمــة (آه) على أنها من أسمــاء الله الحسنى؟ .. فيجيبك: من المأثــور عن الرسول ﷺ : أنه عاد مريضاً فوجده يئن مردِّداً كلمة (آه) ، فلم ينهه ، بل قال للحاضرين : دعوه يئن ؛ فإن الأنين اسم من أسماء الله تعالى!![7] .. والحديث موضوع لا زِمام له ولا خطام .

* * *

الكفَّارات في القرآن والسنن تنقسم إلى أربعة أقسام :

أحدها : كفارة عبادة بغير ذنب أصلاً.. قال تعالى : ﴿ ذَٰلِكَ كَفَّـٰرَةُ أَيْمَـٰنِكُمْ إِذَا حَلَفْتُمْ ﴾ [سورة المائدة/ ٨٩] ، وقد يكون الحنث أفضل من التمادي على اليمين.. وقال رسول الله ﷺ : « إني لا أحلف على يمين فأرى غيرها خيراً منها إلا أتيت الذي هو خير وكفَّرت » .. أو كما قال عليه السلام ؛ فقد نص عليه السلام [على] أن الحنث ـ وفيه الكفارة ـ قد يكون خيراً من الوفاء باليمين.

والثاني : كفارة بلا ذنب باق ، لكن لذنب قد تقدَّم غفران الله تعالى له كالحدِّ يقام على التائب من الزنى.

والثالث : كفارة لذنب لم يتب منه صاحبه ؛ فترفعه الكفارة كحدِّ الزاني والسارق اللذين لم يتوبا .

والرابع : كفارة على ذنب لم يتب منه صاحبه ولا رفعته الكفارة ولا حطته كالعائد إلى قتل الصيد في الحرم عمداً مرة بعد مرة.. قال تعالى : ﴿ فَجَزَآءٌ مِّثْلُ مَا قَتَلَ مِنَ ٱلنَّعَمِ يَحْكُمُ بِهِۦ ذَوَا عَدْلٍ مِّنكُمْ هَدْيًۢا بَـٰلِغَ ٱلْكَعْبَةِ أَوْ كَفَّـٰرَةٌ طَعَامُ مَسَـٰكِينَ أَوْ عَدْلُ ذَٰلِكَ صِيَامًا لِّيَذُوقَ وَبَالَ أَمْرِهِۦ ۗ عَفَا ٱللَّهُ عَمَّا سَلَفَ ۚ وَمَنْ عَادَ فَيَنتَقِمُ ٱللَّهُ مِنْهُ ۗ ﴾ [سورة المائدة/ ٩٥] ؛ فهذه نقمة متوعد بها مع وجوب الكفارة عليه[8] .

---

(٧) الإسلام السياسي / صوت الجنوب ص٣٥ .
(٨) المحلى ٨/ ١٢٦ .

فهرس إجمالي :

* * *

[قال أبوالبركات بن زيد التكريتي يُعنِّف شيخَه أبا بكر بن الدهان لما تحنفش :

ألا مــبلغٌ عــنِّي الوجــيه رســالةً وإن كـان لا تُجـدي إليه الرسائل
تمذهبـت للـنعمان بعـد ابـن حنـبل وذلـــك لمـــا أعوزتـــك المـــآكل
ومـا اخـترت رأي الشـافعي ديانـةً ولكـنما تهـوى الـذي منه حاصل
وعمـا قلـيل أنـت لا شـك صـائر إلى مـالكٍ فـافطن لمـا أنـا قـائل[٩]

(٩) إنباه الرواة ٣/ ٢٥٥ ، وروضات الجنات ٤/ ٨٥ .]

[كان الإمام داوود بن علي الأصفهاني حنفياً ، ثم شافعياً ، ثم مؤسساً للمذهب الظاهري.. وكان الإمام أبومحمد ابن حزم مالكياً ، ثم شافعياً ، ثم ظاهرياً.. وهكذا كان الإمام أبوعمر ابن عبدالبر.. إلا أن آخر أمره أن كان شافعياً بعد أن كان ظاهرياً ، وعمر بن إبراهيم العلوي أفتى بمذهب أبي حنيـفـة ظاهـراً وبمذهـب زيـد تدينـاً[١٠] ، والفرغاني كان حنفيـاً شافعياً[١١] ، والزرندي كان شافعياً ثم حنفياً[١٢] ، وأبوموسى المقدسي كان حنفياً ثم شافعياً[١٣] ، وبدر الدين الجوهري كان حنفياً ثم شافعياً[١٤] ، وابن أبي حجلة كان شافعياً حنفياً وعلى طريقة أهل الحديث[١٥] ، وأبوالعباس السروجي كان حنبلياً ثم حنفياً[١٦] ، وأحمد بن سليمان كان حنبلياً ثم تحول شافعياً[١٧] ، وكان ابن فارس الفراء ظاهرياً ثم شافعياً[١٨] .

* * *

قال الإمام أبو محمد الجويني رحمه الله: «من لعن الأئمة الأشعرية عُزِّر ، وعادت اللعنة عليه.. والعلماء أنصار فروع الدين ، والأشعرية أنصار أصول الدين»[١٩] .

---

(١٠) ميزان الاعتدال ٣/ ١٨١ .

(١١) الدرر الكامنة ٣/ ٤٧ .

(١٢) المصدر السابق ٣/ ٤١٨ .

(١٣) المصدر السابق ٥/ ١٩ .

(١٤) المصدر السابق ٣/ ٣٦ .

(١٥) المصدر السابق ١/ ٣٥١ .

(١٦) المصدر السابق ١/ ٩٦ .

(١٧) المصدر السابق ١/ ١٤٨ .

(١٨) المصدر السابق ١/ ١٧٧ .

(١٩) مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية ٤/ ١٦.]

الاستفتاح:

الحمد لله الذي أعطى كل شيء خلقه ثم هدى ؛ فتلك هداية الله الكونية لِمَا قدَّر وخلق وسوَّى.. ومن هدايته الكونية ما هو في الآفاق كما في قوله تعالى : ﴿ أَمَّن يَهْدِيكُمْ فِي ظُلُمَٰتِ ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ ﴾ [سورة النمل/٦٣] ، وقوله : ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلنُّجُومَ لِتَهْتَدُوا۟ بِهَا فِى ظُلُمَٰتِ ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ﴾ [سورة الأنعام / ٩٧] ، وقوله عن الأرض : ﴿وَجَعَلَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا لَّعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴾ [سورة الزخرف / ١٠] ، ومثل ذلك في الآية ١٥ من سورة النحل ، والآية ٣١ من سورة الأنبياء.. ومنها هداية في الأنفس بخلق الله سبحانه وتعالى العقول والحواس والمشاعر كما في قوله تعالى : ﴿قَالَ رَبُّنَا ٱلَّذِىٓ أَعْطَىٰ كُلَّ شَىْءٍ خَلْقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ ﴾ [سورة طه / ٥٠] ، وقوله : ﴿سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ ٱلْأَعْلَى ﴿١﴾ ٱلَّذِى خَلَقَ فَسَوَّىٰ ﴿٢﴾ وَٱلَّذِى قَدَّرَ فَهَدَىٰ ﴿٣﴾ ﴾ [سورة الأعلى] .. وقرين هاتين الهدايتين الكونيتين اللتين هما خلق الله هداية الله الشرعية البيانية الإيضاحية ، فهذه تنزيله وقضاؤه الشرعي ، والأولى والثانية خلقه وقضاؤه القدري ، والهداية الشرعية البيانية عامة للمؤمن والكافر ، والبر والفاجر.. قال تعالى : ﴿وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَٰهُمْ فَٱسْتَحَبُّوا۟ ٱلْعَمَىٰ عَلَى ٱلْهُدَىٰ﴾ [سورة فصلت/ ١٧].. وهناك هداية كونية ثالثة ، وهي هداية التسديد والتوفيق ، فمنها ابتداءً من الله اجتباءً وإحساناً كهدايته للرسل والأنبياء عليهم الصلاة والسلام كما في قوله تعالى عن إبراهيم الخليل عليه السلام: ﴿ٱجْتَبَٰهُ وَهَدَىٰهُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [سورة النحل/ ١٢١] ، وكما في قوله عن أنبياء الله ورسله عليهم الصلاة والسلام : ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُ فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقْتَدِهْ ﴾ [سورة الأنعام:٩٠] .. ومنها شكر من

الله لعبده ، وثواب منه سبحانه على اهتداء سبق كما في قولـه تعالى: ﴿وَالَّذِينَ اهْتَدَوْا زَادَهُمْ هُدًى وَآتَاهُمْ تَقْوَاهُمْ﴾ [سورة محمد :١٧] .. والله لا يضل عبده ابتداءً ، وإنما سبق في علمه سبحانه أن عبده سيضل بحريته واختياره ؛ فيكون إضلال الله له عقوبة على محادَّته لربه كما قال تعالى : ﴿كَيْفَ يَهْدِي اللَّهُ قَوْمًا كَفَرُوا بَعْدَ إِيمَانِهِمْ﴾ [سورة آل عمران :٨٦] ، وقال: ﴿فَآمَنَ وَاسْتَكْبَرْتُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ [سورة الأحقاف/ ١٠] ، وقال : ﴿فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ﴾ [سورة الصف/ ٥].. وعلى هذا يحمل مثل قولـه تعالى: ﴿ فَيُضِلُّ اللَّهُ مَن يَشَاءُ وَيَهْدِي مَن يَشَاءُ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾ [سورة إبراهيم / ٤].. وكل إضلال من الله فبعدْلِه ، وكل هداية فهي منه بإحسانه وفضله كما في قولـه تعالى : ﴿وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِيَ لَوْلَا أَنْ هَدَانَا اللَّهُ ﴾ [سورة الأعراف/ ٤٣].. وبعزته سبحانه لم يملك هداية التوفيق غيره كما في قولـه تعالى : ﴿ وَمَن يُضْلِلْ فَلَن تَجِدَ لَهُ وَلِيًّا مُّرْشِدًا ﴾ [سورة الكهف/ ١٧] ، ولم يملك أحد إضلال من هداه الله كما في قولـه : ﴿ وَمَن يَهْدِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِن مُّضِلٍّ﴾ [سورة الزمر/ ٣٧].. وبحكمته انقسم الخلق إلى مَهْدِيٍّ وضالٍ كما في قولـه تعالى : ﴿ وَلَوْ شَاءَ لَهَدَاكُمْ أَجْمَعِينَ ﴾ [سورة النحل/ ٩] ، وقولـه : ﴿ وَلَوْ شِئْنَا لَآتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدَاهَا﴾ [سورة السجدة/ ١٣] ، وقولـه : ﴿أَن لَّوْ يَشَاءُ اللَّهُ لَهَدَى النَّاسَ جَمِيعًا﴾ [سورة الرعد/ ٣١].. وصلى الله وسلم على عبده ورسوله محمد الذي أرسله ربُّه هادياً وشاهداً ومبشراً ومنذراً وسراجاً منيراً .. كان رحيماً بأمته حريصاً على هدايتهم كما في قولـه تعالى : ﴿ لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ

عَلَيۡكُم بِٱلۡمُؤۡمِنِينَ رَءُوفٞ رَّحِيمٞ ﴾ [سورة التوبة/١٢٨] ، وكان شديد الحزن على مَنْ لم يهتد حتى سلاّه ربُّه بقوله : ﴿وَلَا تَحۡزَنۡ عَلَيۡهِمۡ﴾ [سورة النحل / ١٢٧] ، وقوله : ﴿ فَلَا تَذۡهَبۡ نَفۡسُكَ عَلَيۡهِمۡ حَسَرَٰتٍۚ ﴾ [سورة فاطر/ ٨] ، وقوله : ﴿أَفَأَنتَ تُكۡرِهُ ٱلنَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُواْ مُؤۡمِنِينَ ﴾ [سورة يونس/ ٩٩] ، وقوله : ﴿ أَفَأَنتَ تُسۡمِعُ ٱلصُّمَّ أَوۡ تَهۡدِي ٱلۡعُمۡيَ وَمَن كَانَ فِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٖ﴾ [سورة الزخرف / ٤٠] ، وقوله: ﴿لَّيۡسَ عَلَيۡكَ هُدَىٰهُمۡ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهۡدِي مَن يَشَآءُۗ﴾ [سورة البقرة / ٢٧٢] ، وقوله : ﴿إِن تَحۡرِصۡ عَلَىٰ هُدَىٰهُمۡ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهۡدِي مَن يُضِلُّۖ ﴾ [سورة النحل/٣٧] ، وقوله : ﴿ إِنَّكَ لَا تَهۡدِي مَنۡ أَحۡبَبۡتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهۡدِي مَن يَشَآءُۚ ﴾ [سورة القصص/٥٦].. اللهم صل عليه وسلم ، وعلى آله وأصحابه والمستمسكين بهديه الذين يهدون بالحق وبه يعدلون ، وارحم اللهم عصاة المؤمنين بعفوك وكرمك ، ومُنَّ على من لم ينته أجلُه بهدايتك التوفيقية.. اللهم أرنا الحق حقاً وارزقنا اتباعه ، وأرنا الباطلَ باطلاً وارزقنا اجتنابه.. اللهم اهدنا لما اختلف فيه من الحق إنك تهدي من تشاء إلى صراط مستقيم .

❊ ❊ ❊

[قال ابن عبدالقوي الطوفي عن نفسه :

حنـــــبلي رافضـــــــي ظاهـــــري
أشـــعري إنهـــا إحـــدى الكُـــبَر[٢٠]

---

(٢٠) الدرر الكامنة ٢/ ٢٥٠-٢٥١ و٣/ ١٠.]

[كان أحمد بن بشير مالكياً شافعياً[٢١] ، وكان منذر بن سعيد البلوطي مالكياً ظاهرياً ، وكان ابن دقيق العيد مالكياً شافعياً ، وكان أبواليمن الكندي حنبلياً ثم حنفياً[٢٢] ، وكان الحافظ السلامي شافعياً ثم حنبلياً .. وقد أعاد صلاته التي صلاهـا وهو شافعي منذ احتلـم إلى أن تحنبل !![٢٣] ، وكان محمد بن يحيى السلامي حنبلياً ثم شافعياً[٢٤]، وكان أبوالفتح المقدسي حنبلياً ثم شافعياً[٢٥] ، وكان أبوالقاسم العكبري حنبلياً ثم حنفياً[٢٦] ، وكان نعمان ابن محمد مالكياً ثم إمامياً[٢٧] ، وكان محمد بن عمر مالكياً ثم شافعياً[٢٨].

قال **أبوعبدالرحمن** : ومن الذين لم يتحنفشوا أبوالبقاء عبدالله بن الحسن العكبَري الضرير النحوي الحنبلي .. سأله جماعةٌ من الشافعية أن ينتقل إلى مذهب الشافعي ويعطونه تدريس النحو بالنظامية ؛ فقال : لو أقمتموني وصببتم عليَّ الذهبَ حتى واريتموني ما رجعتُ عن مذهبي[٢٩] .]

---

(٢١) الديباج المذهَّب ١/ ١٥٧ .

(٢٢) روضات الجنات ٣/ ٣٩٥ .

(٢٣) الوافي للصفدي ٥/ ١٠٥ .

(٢٤) المصدر السابق ٥/ ٢٠٧ .

(٢٥) المصدر السابق ٣/ ٢٥٣ .

(٢٦) روضات الجنات ١/ ٢٥٨ .

(٢٧) المصدر السابق ٨/ ١٤٨ .

(٢٨) الديباج المذهَّب ٢/ ٣٢٦ .

(٢٩) روضات الجنات ٥/ ١٣٢ .

المقدمــة :

هذه السلسلة عن الفكر الإسلامي قرينةُ أعمال أُخرى كالعقل الفلسفي ، والعقل الجمالي ، والعقل الأدبي ، والعقل اللغوي ، والعقل التاريخي.. مع أعمال تراثية أخرى ظلت حبيسة الأدراج طوال ثلاثة عقود في عمل متواصل أو أكثر.. ظلَّت حبيسة الأدراج : إما بسبب مَلَلي من البحث في موضوع وانتقالي إلى آخر بدافع الشوق.. وقد كان هذا ديدني في كل أعمالي الكثيرة لا أحبس نفسي لعمل واحد حتى أنهيه، وإما من أجل انتظار مصدر غائب، وإما بسبب التكاسل عن تحقيق مسألة جزئية عارضة.. وقد آثرتُ نشر كل هذه الأعمال لتصدر عن مؤسستي دار ابن حزم التي لم أنشئها لغرض مادي بحت ، بل لنشر أعمالي .. وآثرتُ نشرها مجزَّأة في كراريس ، وذلك أعون لي على إنهائها .

* * *

وأعني بالأدلجة: نقل المعرفة التصورية إلى المعرفة البرهانية ؛ لأن أول استعمال للأيديولوجيا يعني النظر في طبيعة الأفكار من جهة أنها ظواهر نفسية ؛ فتُعرف خصائصها وقوانينها وعلاقاتها بالخارج(٣٠) .. اخترتُ هذا المعنى الأوليَّ من معانيها؛ لأن الفكر الإسلامي ثري بالسجال برهنةً ونقداً ؛ فما كان من المعرفة الإسلامية مدلولَ نصٍّ قطعي فبراهين معقوليته وعدله وحكمته ورحمته قائمة ، ولا يروِّع هذه البراهين نظر أيديولوجي في طبيعتها

---

(٣٠) من أراد التوسع فليراجع كتابي «المعاني الأيديولوجية» ضمن سلسلة معاني المفردات الاصطلاحية .

الفكرية.. والمعرفة الإسلامية تنطوي على مذاهب إسلامية عندما يكون الخطاب الشرعي محتملاً ؛ فما كان منها نزيهاً مخلصاً لطلب الحقيقة فلا يضيره النظر الأيديولوجي ، بل يفرح بأي لفتة أيديولوجية تردُّ فكره إلى شيء خارج النص .. وما كان منها محكوماً بهوى أو حمية أو تمعلم فمن الخير أن نكشفه بنظرة أيديولوجية.. كما أن الفكر الإسلامي في سجاله اعتراضاً ونقداً قادر على أداء المهمة الأيديولوجية .

* * *

وأستعمل الفكر الإسلامي على وعي بما يُورد على هذا التعبير من اعتراض غير وارد على وجه الحقيقة ، وأمهِّد لبيان ذلك بملاحظة الفارق بين خطاب شرعي ـ من القرآن أو السنة ـ ، وهو بمفردته ومعناها (في مراد الله وعلمه) وحي من عند الله ، وهناك فعل بشري في تلقي الخطاب لفهم معناه.. والمعنى الشرعي واحد ، والفهم متعدد.. هذه الثنائية حقيقة لا نزاع فيها فيما أعلم ، وكلمة « كل مجتهد مصيب » لا تعني أن « كل اجتهاد صوابٌ » ؛ إذن الثنائية موجودة .. إلاَّ أن هذه الثنائية ليست شرطاً في كل خطاب شرعي وفهم بشري إلا في حالة أن المجتهد هنا غير مصيب ، وترتفع الثنائية إذا كان المجتهد غير مصيب وغير ذي إصابة ؛ لأنه اجتهد مع قطعية النص ، ولا اجتهاد حينئذ.. وهذه الثنائية ترتفع حينما يكون النص قطعياً دلالة وثبوتاً ، ومن ذلك المحكم من آيات القرآن الكريم التي يُرَدُّ إليها وإلى بيان رسول الله ﷺ معنى المتشابه ؛ فلا يليق بالمجتهد أن يعقل معنىً آخر غيرَ المعنى الشرعي المحدَّد بطرق الدلالة الشرعية التي نزل بها خطاب الدين

الإسلامي.. وأما الخطاب المحتمل الدلالة أو الثبوت أو هما معاً ؛ فيكون الفقه فيه فقهاً بشرياً ، والفكر فيه فكراً بشرياً.. ولكن يكون الفقه والفكر ـ وإن تعدَّد المفكِّرون واختلفت أفكارهم ـ إسلامياً إذا كان الاجتهاد نزيهاً وفق المنهج الذي رسمه الشرع المطهر.

قال أبوعبدالرحمن : أجل إنني أعرف ما يُوْرَد ـ وهو غير وارد ـ على التعبير بكلمة «التفكير الإسلامي» ، ومن الممكن أن أُعبِّر بكلمة « تفكير المسلم» وأتحاشى الإيراد ونقضه ، ولكنني مُلِحٌّ على التعبير الأول ، وأنه صحيح بإطلاق ، وأنه في حكم « الفقه الإسلامي » ، و« عقيدة الإسلام » ؛ إذ كل من الفكر والفقه عمل عقلي ، والعقيدة عمل قلبي[٣١] .. ووجه المؤاخذة أن الإسلام وحي من الله ، وليس هو فكراً بشرياً يُنسب إلى تفكير البشر.. كما أن أسماء الله سبحانه توقيفية ، وليس من أسمائه سبحانه المفكر فينسب الفكر إلى الله بهذا المعنى .

قال أبوعبدالرحمن : التفكير فعل المسلم المجتهد ، والإسلام ـ الذي هو دين الله ـ عقيدةً وشريعةً موضوعٌ لتفكير المسلم بعقله ، واعتقاده بقلبه .. والتفكير اجتهاد العقل في فهم وحي الله على مراد الله ، وقد يصيب ، وقد يخطئ ؛ وهذا لا يكون في صريح الوحي وصحيحه قطعي الدلالة ؛ فنسبة

(٣١) العقيدة ما انطوى عليه القلب من نية ، منها التصور والعزم والتألم والتلذذ والشوق والخوف ، وهي التي تقود السلوك.. ولا تكون العقيدة صحيحة زكية إلا بصدورها عن برهان علمي يجعل العقيدة إيماناً علمياً ؛ لهذا كثر الخطاب في القرآن الكريم للقلب مقر العقيدة ، وطالبه بأن يكون فَقِهاً عاقلاً ؛ ومعنى ذلك أن يكون إيمانه عن علم صحيح ؛ ولهذا عاب غير ذوي العقيدة العلمية بقوله تعالى: ﴿لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا﴾ [سورة الأعراف/ ١٧٩] .

التفكير إلى الإسلام بسببين :

أولهما : أن خطاب الشرع المطهر من الوحيين (المتلوّ للتعبد ، وغير المتلوّ) موضوع لنظر العقل بتفكيره .

وثانيهما: أن يكون تفكير العقل في فهم الشرع حسب توجيه الشرع نفسه؛ فيكون وفق قوانين لغة العرب رابطة ومفردة وصيغة وجملة ، وبمقتضى بلاغة العرب التي دُوِّن علمها ، ووفق وظيفة العقل شرعاً بأن يفهم الشرعَ ويمحِّصه دلالة وثبوتاً ثم يذعن له ، وأن يستوعب الرجوع إلى موارد الشريعة وفق حاجة الموضوع الذي يبحثه، وأن يكون مخلص العبودية لله في اجتهاده؛ فلا يميلنَّ به تمعلم، وحب ظهور، وحَميَّة باطلة ، واتباع أهواء.

وبعد ردود الفعل بين الإسلام وتاريخه ، والتاريخ العالمي الحديث بعلمه وفكره وتسلطه استجدت مادة في حقول معارفنا هي « الكتاب الإسلامي »، وهو جزء من عقيدة التوحيد ، ولكنه لم ينلْ استقلاله قديماً بالوضعية التي هو عليها الآن ؛ لأن أبواب العقيدة كانت عن السمعيات والغيبيات ووحدانية الله سبحانه وكماله وربوبيته وما يقتضيه ذلك من إفراده بالعبودية والنبوة وعصمة الشرع.. ولا يخوض في المباحث التفصيلية عن مسائل الشريعة ، وأن الحكم بها هو الأوْلَى ؛ لأن تاريخ المسلمين يومها لم يعهد مبادئ أو أيديولوجيات تدَّعي أن لها الحق في تنظيم حياة البشر ، ولم يوجد عدو يفوقهم عدة ويُحكم الحيلة في فرض ذلك عليهم بخوارج من أبنائهم.. ووجدت نواة في تاريخ المسلمين لإمداد الكتاب الإسلامي ، وهي المباحث الأصولية عن المقاصد كما عند الشاطبي رحمه الله ، والمباحث الفرعية عن

حكمة التشريع كما في كتاب ابن عامر ، وابن عبدالسلام والبخاري من أهل القرن الثامن الهجري تقريباً ؛ وكتاب الدهلوي ، وما هو مبثوث في كتب الفقه.. والكتاب الإسلامي بهذا المعنى يجب أن يُقيَّد بكلمة «الفكر» .. أي الفكر الإسلامي ؛ لتخرج المباحث المندرجة في التفسير والحديث والفقه وعلومها ، والعقيدة والآداب.. وخِصِّيصة كتاب الفكر الإسلامي أنه مواجهة تفصيلية ـ في أبواب الفقه مثلاً كمشروعية الطلاق ـ ، وإجمالية عن عصمة الإسلام وخيريَّته.. إنه مواجهة لكل دعوة إلى التماس البديل ، أو الاحتيال على التحلل منه بنفاق علمي .

كان المسلمون ملتزمين بدين ربهم ، وكان هَمُّ العلماء تحرير الحكم بالاستدلال ؛ ليعمل الناس به ؛ فلما فُصل الدين عن الدولة ، واستفحل انفصال الدين عن الحياة العامة ، واشتدت الهزيمة الروحية بسبب كبرياء العدوِّ عسكرياً ومالياً وعلمياً ، واستفحل الإرهاب الفكري ، وكان الدين هو الحضور في حياة السواد الأعظم ، وتاريخه هو الطعم اللذيذ في ذاكرتهم.. ولما أفرز التعليم المدني طلائع وُصفت بأنها النخبة ، وكان لها الهيمنة في الوظائف الإدارية والتعليم : حصلت المواجهة ، وأنتجَتْ هذه المواجهة تساؤلات أكدت اغتراب كثير من أبناء جلدتنا عن دينهم.. من تلك الأسئلة : ما حقيقة الإسلام ، وماذا سيقدمه بعد غزو الفضاء ، وهل سنشغل أنفسنا به والآخرون يفجرون الذرة ، ولماذا يُقيِّدنا عن زينة الحياة ومباهجها ، ولماذا نخضع لتقييده حريتنا ؛ والحرية هي أرضية هذه الحضارة العالمية الكبرى التي نعيشها ، وكيف نُكبِّل حريتنا بقسوة تصل إلى قطع اليد والرجم ، وأين المساواة في جعل نصيب المرأة من الإرث نصف نصيب

الرجل ، ولماذا نظلم المرأة بفرض تعدد الزوجات على حياتها ، وهل من العدل أن يقر النظام الإسلامي ملكية رجل عنده المليارات وأبناء بلده يتضوَّرون جوعاً .. إلخ .. إلخ ؟؟ .

إن الكتاب الذي يتناول بمجهودٍ فكري الإجابة عن هذه الأسئلة ، وتفنيدَ باطلها هو كتاب الفكر الإسلامي.. وإن الثنائية بين الفهم البشري والخطاب الشرعي الذي هو موضوع الفهم : حقيقة تاريخية قائمة على طبيعة البشر ـ حال النزاهة في التماس الحق ـ من جهة تفاوت مداركهم ؛ لأن القدرات تتفاوت ، ومن جهة حضور أو غياب شواهدهم.. وقد عبَّر أهل الكتاب عن هذه الثنائية باللاهوت الديني ، واللاهوت الطبيعي.. وهي ثنائية توحي بدينين (دين رباني ، ودين بشري).. وواقع ديننا الإسلامي لا يسمح بهذه الثنائية حكماً وإن حضرت وجوداً .. والسرُّ في ذلك أن في الدين قطعيات بصحيح الخطاب وصريحه وشواهد من السيرة العملية لا اختلاف فيها .. وهناك مسائل يسع فيها الاختلاف ، ورحمنا الله فلم يتعبدنا فيها باليقين ، بل بالرجحان في نظر المجتهد إذا أخلص في طلب الحق بتجرُّدٍ ؛ فحال الاختلاف ـ بالصفة الاجتهادية المذكورة ـ تكون الإصابة واحدة ؛ لأن الحق واحد ، ويكون الآخرون مخطئين إذ لم تحصل لهم الإصابة ولكنهم مصيبون في سلوك المنهج الشرعي ؛ لأن لهم أجراً ومعذرة ، وهم مطيعون للخطاب الشرعي وإن جانبتهم الإصابة .

* * *

إذن ثنائية الخطاب والفهم ثنائية وجود لا ثنائية حكم ؛ فيكون الحكم أن

الفهم خلاف الخطاب، بل الخطاب مطابق للفهم عند من صح علمهم وفهمهم ؛ فتوجد حينئذ ثنائية أخرى بين البشر ما بين ذي فهم مطابق وذي فهم مخالف حسب المقاصد ـ نزاهة، أو تعصباً، أو تضليلاً ـ وتفاوت المدارك.

والموسوعية اليوم شرط في تحصيل الأهلية للمفكر المعاصر ، والموسوعية لا تعني ادعاءَ المتعذِّر (وهو العلم بكل شيء ، والتخصص في كل حقل) ، وإنما هي تخصص في أكثر من حقل حسب القدرة والاستعداد والهواية ، ثم التثقف العام في حقول أخرى من غير حقول التخصص.. ومن هذا التثقف يولد حقل علمي جديد تخصصي بحت ، وهو علم العلاقات والمفارقات بين عدد من العلوم ؛ فتكون للمفكر مَلَكة علمية يخدم بها تخصصه .

وهذه الأهلية مطلب ضروري عاجل لمعايشة المسائل الشائكة الحيوية اليومية التي لم يستوعبها بعض علمائنا كما استوعبوا تراثهم ؛ بدليل أنهم غارقون فيه ، منعزلون عن كل طرح معاصر.. وأريد بالمعايشة معايشة فكرية مؤهَّلة عادلة معيارها قيم الحق والخير والجمال .

من تلك المسائل المعاصرة طرح فكر قوميٍّ يُفْرِغ العربيَّ من الإسلام الذي هو شرط اعتباره ، ويملؤه مسخاً كما في بعض فكر ساطع الحصري ، والدكتور عصمت سيف الدولة ، والدكتور صفوت حاتم.. وكما في جميع فكر ميشال عفلق ، وزكي الأرسوزي ـ وهو فكر أنشأ دولاً عابرة ـ ، وصلاح الدين البيطار ، ونديم البيطار ، ومحمد أحمد خلف الله ، وحاطوم ، وعبدالعزيز الأهواني ، وجمال الدين حمدان ، وياسين حافظ ، واللواء محمد الجراح ، وملحم كرم ، وعبدالله الريماوي ، وحسن صعب ، وجمال الدين

الأتاسي .. وهناك فكر ماركسي مات عملياً ونظرياً ، وبقي الولاء له حميةً لماضي المفكر الثقافي وأنفة من التراجع عند أمثال هاني الزعبي صاحب كتيِّب « الذين يحضرون غيابهم » ويا ليته تذكَّر أنه من الذين يحضرون سقوطهم.. لقد ضاق الناس بشطحات الأوائل كشطحات طه حسين ، وقاسم أمين ، وعلي عبدالرزاق ، ومنصور فهمي ، وإسماعيل مظهر .. ومن ورائهم أمثال مرجليوث .. ثم استجدت الشطحات ظاهراً ـ وهي مبرمجة أساساً ـ بلغة مفككة ، وغمغمة فكرية لدى مدرسة أدونيس بالمشرق ؛ فلما فقد هؤلاء جاذبيتهم هبَّ لنجدتهم أدونيسيون من أقصى عالمنا العربي في إفريقيا نفق سوقهم بعد سقوط أدونيس وأصحاب حوار ومواقف وشعر.. بل هو التفاف مغربي غربي لم يراع حرية الأديان وحرمتها ، وصار يجرح الإسلام وأهله ، ويتكلم في حق الرب سبحانه بما يوجب حكم الردة لو كان للإسلام في بعض البقاع سلطان يحميه .. وشرٌّ هؤلاء فتحي بن سلامة المقيم بباريس طبيباً نفسياً ومدرساً بكلية باريس السابقة ، ومدير مجلةٍ تجمع نخبة من الماسون عملهم بحث العلاقة بين الإسلام وأوربا وقضايا الحداثة بمثل طرحه العفن في كتيِّبه « تخييل الأصول / الإسلام وكتابة الحداثة » يدافع فيه عن الكاتب الآثم مؤلف الآيات الشيطانية مع هجوم غير موارِب على الدين ، وتنقُّصٍ للرسالة ومُنزِّلها .. ويتناغم معه في بوق مبحوح شكري المبخوت الذي يُظهر التألم من استياء ذوي العلم والفكر من شطحات ورِدَّاتٍ لدى فرج فودة ، وتسليمة نسرين ، ونجيب محفوظ ، والصادق النيهوم ، ونصر حامد أبوزيد ، ويوسف شاهين.. وبعض هؤلاء مغمورون ذكراً وعلماً ، وإنما شهرهم التجديف.. ومن الفكر المغربي كتابات علي

حرب ولا سيما «أسئلة الحقيقة ورهانات الفكر / مقاربات نقدية وسجالية»، وهو براءة من المذاهب والأصول ؛ ليأخذ ـ بحرية سلوكية لا فكرية ـ راحته فيما يقول من سخام عن الإسلام وأهله.. وكذلك كتابه نقد الحقيقة.. وثمة فكر مغربي أحسنُ ظنٍّ بأهله : أنهم لا يصدرون عن أيديولوجية منظمة للتضليل عمداً ، ولكنهم أنفسهم مُضلَّلون (بصيغة اسم المفعول) ؛ فكان فكرهم عدائياً استفزازياً كثير المغالطة ربما عن غير قصد من أمثال طه عبدالرحمن ، والجابري .. وأما محمد أركون فأنا حائر في أمره ، ولا سيما ما يتعلق بالمنهج وتقويم الفكر العربي التراثي .. والجابري كَتَب بكثرةٍ وسرعة تحتاج إلى سنواتِ تأمُّلٍ في أوقات نشاط ذهني ؛ فأسفَّ واقتضب وغالط وسطَّح ، وقد رأيت له في الكلام عن ابن رشد وعن الخلافة هذراً يُضحك الثكلى ، ورأيتُ له في سائر كتبه تمعلماً في استعراض فكرِ عربي تراثي على غير نسقه ومفهومه .. وثمة فكر لغوي أسلوبي وبنيوي وتفكيكي كابَرَ مسلمات اللغة ، وملأ التنظير بتفاهاتٍ وزخم من الاصطلاحات في أوضح الواضحات لا يخرج منه قارئه إلا بالعقم العلمي ، وذلك هو المزج بالريح.. بدأ هذا الفكر بأمثال فصول في علم اللغة من تأليف ف. دي سوسير وتعريب الدكتور أحمد نعيم الكراعين .. وهي خزعبلات عبَّ منها ونهل جون كوهن، وياكبسون، وتودروف ، ولوتمان، ولاكوف، وإديت كروزويل ، وجورج مونان ، وجاك دريدا ، ورولان بارت ، وفرانسواز أرمينكو ، وليفين صمويل.. وتلقفها أمثال كمال أبوديب ، وحكمت صباغ الخطيب ، وأمينة رشيد، وهدى وصفي ، ومحمد ناصر العجيمي.. على أن الدكتور عبدالعزيز حمودة تصدَّى لبعض هذه الخزعبلات في كتابه «المرايا المحدبة من البنيوية إلى

التفكيك».. إلا أنه حشد معارف فلسفية حشداً مقتضباً غير مفصل ، وكان التشويش فيه أكثر من الإفادة .. وهناك فكر ميتافـيزيقي تكهُّني إزاء الحقائـق الشرعية مـن أمثال (الكتاب والقرآن قراءة معاصرة) للدكتور محمد شحرور[٣٢] وما كتبه عبدالصبور شاهين عن أبينا آدم عليه السلام.. ولا تنسَ فكر العولمة ، وصراع الحضارات ، ونهاية التاريخ ، ومخاوف القرن الحادي والعشرين وما بعده.. وهناك صليبيون وماسون أظهروا الإسلام وكادوه واحتضنهم بعض الرموز من أصحاب الدراسات المعاصرة عن الإسلام وهمومه ، وقمة هؤلاء روجيه جارودي ، وكتبه المعرَّبة المضلِّلة زاخرة بالتصورات الخاطئة عن الإسلام والسلفية ــ على قصر عمر علاقته بأهل الإسلام[٣٣] ــ .. أما الطرح الفلسفي الأجنبي فهو متاع للنخبة الثقافية العربية المعاصرة ، ولا يُعتبر رمزاً نخبوياً من لا يشحن كتاباته بمقولات فلاسفة الخواجات إن كتب عن اللغة أو التاريخ أو النقد أو العقائد .. ولقد أصاب فكرنا العربي بالخبال فلاسفة متأخرون من أمثال سارتر وياسبرز ؛ فإذا بهم يتجددون لدى فلاسفة تمظهروا بالمسيحية واستبطنوا الإلحاد، وأُغرِي بهم النخبيون العرب من أمثال بول تلش ، وكارل بارث ، ورودلف بولطمـان .. ولقد أحسن الدكتور وهبة طلعت أبوالعلا بفضح إلحادهم المتستر في كتابه «جذور إلحادية في مذاهب لاهوتية».

(٣٢) أثار كتابه موجة من الاستياء تجلَّت في كثير من الردود التي بيَّنتْ جهل المؤلف بلغة العرب وسننهم في التعبير والتفكير .

(٣٣) في أسفار هذا الكتاب إن شاء الله فصل محقَّق عن إسلام جارودي .. والمحقَّق عندي الآن أنه من الأصوات الجهورية الصادقة ، والوعي العلني المبكِّر بفضح مكايد الصهيونية بتفصيل أدق ، وأنه مؤمن بالله إيمان الربوبية ، ومؤمن برسل الله عليهم الصلاة والسلام في كتبه إجمالاً ، و لكنه لم يُحقِّق إسلاماً صحيحاً .

وفي الساحة مما يجب استيعابُه بفكرٍ نقدي طرحٌ علمانيٌ أعمُّ يشمل الماركسي والمتسب إلى الإسلام بتنازل عن بعض حقائق الإسلام لا يملكه ـ وذلك هو الإسقاط ـ ، وبادعاء على الإسلام لا يملكه أيضاً (وذلك هو الزحزحة لحدود المعاني الإسلامية).. وكل ذلك بثقافة بشرية ، وبحرية سلوك قولي وعملي.. وليس ذلك ضرورة فكر ، ولا دلالة يقينية أو رجحانية من معاني الخطاب الشرعي.. تجد ذلك عند معاصرين من أمثال عبدالرحمن بدوي ، وحسن حنفي ، ونصر حامد أبوزيد ، وعزيز العظمة ، وطيب تيزيني ، وصادق جلال العظم ، ومحمود إسماعيل ، وأبي علي ياسين ، وسيد القملي ، وجابر عصفور.. وكل هذه الوجوه إفراز ظروف تاريخية أليمة ؛ فبعد تتابع استقلال البلاد العربية عن الاحتلال الأجنبي المباشر كان الاستقلال وفق إرادة استعمارية ذات وجوه ؛ فمن الاستقلال ما كان وفق مدة محدَّدة ؛ فخرج الاستعمار من بلادٍ لا تملك أدنى قدرة عسكرية على طرد المستعمر.. ومنه ما كان عن حرب أهلية بحماس جماهيري صادق متوهج قادر على المصابرة والتضحية ، واحتضن حماسهم قادة عُرفوا فيما بعد بالوطنية ، وأصبحوا رموزاً فدائية في طرد المستعمر ، ثم جاء خَلَف آخر ليتسلم القيادة في بلد طُرد منها المستعمر وليس للمتسلِّم أي مجد تاريخي، ولا واقع أسري قيادي ؛ فكانت الدعوة إلى الوحدة ، واللاانحياز ، والاكتفاء الذاتي ، وتأليف كتلة ثالثة ـ نامية لا متخلفة ـ تزن القوتين العسكريتين الشرقية والغربية ، اسمها الأمة العربية فقط ، أو الأمة العربية بوصف أيديولوجي كالاشتراكية مثلاً .. ولكن ليس من تلك الأوصاف وصف الإسلامية.. ثم مضى نصف قرن كامل ؛ فوجدنا خلافة محمد ﷺ والأربعة

المهديين رضي الله عنهم ، ومملكة معاوية وعبدالملك وهارون إلى الفاتح رضي الله عنهم ورحمهم .. وجدنا كل ذلك يعيش حصاراً يُعتبر أمامه حصار طوكيو وبرلين مِزْيحة باردة .. وجدنا عالماً إسلامياً تبرَّأ منه قادةُ الرقعة العربية ، واعتبروه عالماً أجنبياً أعجمياً.. ووجدنا الاستعمار لم يخرج مغلوباً بسلاح المواطنين الغيورين الصابرين الصادقين ، بل بفساد من أبناء جلدتنا تبنَّوا الدفاع الوطني ، وتزعموه ، واحتضنوه ، وحصلوا على تلميع أجنبي وولاء من الجماهير المخدوعة ، وبذلك حكموا أمتهم.. ولكن بالشرط الذي يريده الاستعمار لا بالشرط الذي تريده أمتهم.. وأهم الشروط أن لا يحكم الإسلام ، وألاَّ تبقى الرموز الأسرية الحاكمة ، وأن يُلصق بها كل عيب وتهمة ، وأن تكون مخالفة القانون جريمة ، والجريمة تقتضي العقوبة (والقانون الوضعي معروف أمره في التقنين للإباحية والحرية غير البرهانية) .. ومبتغي مثل حكم أبي بكر وعمر رضي الله عنهما ، أو مثل إمبراطورية عبدالملك وهارون الرشيد رحمهما الله : مخالفٌ للقانون الذي يفصل الدين عن الدولة ، ويفصل الدين عن الحياة العامة بتغييب دوائر الحسبة إلا بوليس الآداب الذي يحمي اللاقانون بالقانون!! .. وتفجَّرت عدوى الثورات ، وتغيير ثوابت الاستقرار بتغييب أسرٍ حاكمة يدعو لها بالرضوان من عانى عذاب تلك الثورات ، وقاد الأمة نكراتٌ كما أسلفتُ ليس لهم مجد أسري ولا مآثر ذاتية.. وكانت الغاية واحدة هي: الوحدة ، وتحرير فلسطين ــ وهي آخر ما بقي من أشكال الاحتلال العسكري ــ ، والتنمية ، والعدالة الاجتماعية ، والحرية الجماعية ، والمساواة .. ووسيلة هذه الغاية متعددة من اشتراكية معتدلة ، وبعثية ، وقومية بغير الشرط للحضور العربي التاريخي..

وَوُلِدَتْ شعارات ليست وسائل للهمِّ الجماعي العربي كالوطنية المتقوقعة والماركسية والأممية.. وصارت التنمية معاهد للموسيقى والأزياء والسينما ، والاندفاع الطبيعي لمظاهر الحضارة المادية عمراناً وطِبّاً.. إلخ ؛ مما يجعل الأمة باقية على وضعية الأمم النامية ، ولكنه نموُّ متعةٍ لا قوة ، ويحتِّم عليها أن تظل نامية ؛ لأنها إنْ ملكت المسموح به من التعلم في الطب مثلاً فلن تملك معملَ الطبيب باكتفاء ذاتي ، ولن تملك من القوة ـ صنعاً ، أو اكتشافاً ، أو تملكاً ـ إلا ما تسمح به سياسة من يملك القرار العسكري.. ورأينا بأس الأمة بينها ؛ فصُفِّيت بالثورات والمبادئ المستوردة فلذات الأكباد ، وخيارات البيوت ، وجُرِّد من الملكية ومهارة الكسب والصنع والحرث مهارات لا يُستهان بها ؛ فماتت كمداً ، وانقطع الغذاء والإنتاج على أيدي هؤلاء المهرة ، وتضاعف السكان ، وزحف جحيم الأسمنت على نعيم الريف بخضرته ونضرته وثماره المتدلية.. واقترف زعيم مشبوه ـ وهو نموذج لغيره ، ولكنه أسوأ النماذج ـ أعظم كوارث بيئية في خليجنا ، وقتل الآلاف بيده ، وتحصن بحرس مرتزق يشبه الجيش السري (الذي لا يُعْرَفُ له يد وطنية تديره) في بعض رقعتنا.. الجيش الذي يرتكب المجازر للأطفال والنساء في المدارس والمصحات والأرياف بعد تغييب كل نوازع الضمير الحية ، وذلك بتنفيذ هذه الجرائم تحت وطأة المخدرات ، وقد حفل عام (١٤٢٢هـ) بكتاب لأحد الجنرالات الذين شاركوا في هذه الجرائم ثم استيقظ ضميرهم ، فاستاءت الشعوب المسلمة ـ عربية ، وأعجمية ـ ، ولم يثر الكتاب عجباً أمام العالم الأقوى الذي يعرف أسرار الجيوش السرية الحاكمة في الشمال الشرقي والجنوب الغربي حيث قامت دولةٌ للإسلام

وأَفَلَتْ دولة، وتحوَّلت من العروبة والإسلام إلى العجمة والكفر.. وتكشفت الأحوال عن رموز وطنية في طرد المستعمر عسكرياً (؟!!) ، ورموز تبنت الوحدة ودوافعها ؛ فإذا هم مجرد دُمى ومصدر طموح وهمي لأمتنا ، ولا تزال الوثائق بعد كل ثلاثة عقود تدمغهم بالخيانة والنفاق .. وتحركت السعودية بثقلها التاريخي والمالي والقيادي في عهد الملك فيصل رحمه الله ، ودعت إلى التضامن الإسلامي ، وإشراك العالم الإسلامي في المسؤولية ؛ لأن الرقعة ـ عربيها ، وعجميها ـ كلها دار إسلام ، والعروبة منحة إسلامية كلما تعرَّب إقليم ، والإسلام مسؤولية بلاغٍ عربي كلما ظلَّت العجمة في إقليم .

وكان العالم الأقوى (المعسكر الشيوعي ، والولايات المتحدة ، وحليفتها أوربا) مُسيَّساً من قوى خفية علنية في آن واحد عُرفت في الدراسات الحديثة بالقوى الخفية التي تحكم الكون .. خفيَّة على العامة التي خنق سعة ثقافتها الانهماكُ في الحرفة والتخصص وتحقيق لقمة العيش في أمم تحطَّمت فيها الأسرة والدين والأخلاق بسيادة القانون الوضعي ، وارتفع كل تكافل اجتماعي على مستوى القرابة والعاقلة والقرية والمجتمع ، وكانت كل كماليات الفرد بالتقسيط والربا والتأمينات.. وهي علنيـة لمفكري العالم في الولايات المتحدة وروسيا وأوربا الذين عرفوا أنهم محكومون مُسيَّسون من حفنة صهيونية بيدها المال والجنس والإعلام والمحاماة والقانون والمافيا والأضابير.. إلخ .. إلخ .. وهزَّ الأوساط كتاب طبع في لندن للمرة العاشرة بعنوان «دعونا نتكلم بصراحة» .. وبدأ نوع من الصوت الخافت الجزئي ، ولكن الكيد أكبر ؛ لأنه مع الكيد الصهيوني وثقله تُوجد أعباء من الجهل والتضليل الميتافيزيقي لإنجيليين يقودون العالم ، ويؤمنون بالدولة الداوودية

الواحدة ، وأن عيسى جاء لإكمال ناموس موسى عليهما وعلى نبينا وعلى جميع أنبياء الله ورسله أفضل الصلاة والسلام ، وَوُجد أكثر من بابا ــ وهو يهودي !! ــ يبرِّئ اليهود من جحد دين عيسى عليه السلام ومحاولتهم قتله ، وديننا الحق بيَّن أنهم قَتَلةٌ ؛ وبيَّن أنهم ما قتلوه يقيناً ؛ لأنهم قتلوا شبيهَهُ قاطعين بأنه هو هو ، ولكن الله رفعه ، وبيَّن أنهم ما قتلوه يقيناً ــ وهم يبوؤون بإثم القاتل ــ ، بل شُبِّه لهم ؛ فكانت الخضخضة للدولة الواحدة بعد معركة أرمياصيدون وظهور مِيسْياهم المنتظر وما هو إلا الأعور الدجال لعنه الله.. هذه الخضخضة كانت بالشركة الواحدة ، وتوجُّهات العولمة بكل حيلها.. وبدا حاخامات اليهود في ثقة عمياء بنجاح رهانهم في السيطرة على العالم ، وصرَّح أحدهم: بأنهم لا يخافون عصبة الأمم المتحدة ، ولا يعترضهم أي حقٍّ للفيتو.. وقُوبل تحرك الفيصل رحمه الله بكيد عالمي سريع ، فبُعْثر التجمع الإسلامي وحماسُ الشعوب بتصفية قياداتٍ ، وفرض قيادات طارئة ، وتشرذم كثير في التمذهب الإسلامي كما لدى الحركيين ، ودخل في التشرذم عناصر فعَّالة تدعو إلى الإسلام وتعمل بغير دعايته وبما يضر أهله ، وأُلغيت حالات الثورات التي اجتاحت عالمنا العربي والإسلامي مع الاحتفاظ بما هو كائن ما ظل تحييد الشعوب عن قضاياها ، وتعطيل ميثاق جامعة الدول العربية ، وأهداف التضامن الإسلامي :(٣٤) أمراً واقعاً بعملٍ إيجابي من الخونة ، وعجزٍ من الخيِّرين المخذولين من أشقائهم وجيرانهم ؛ فعملوا ما يسعهم أمام الله من الدعم المالي ، وعدم التورط في التطبيع ،

---

(٣٤) قال أبوعبدالرحمن : أضع النقطتين الفوقيتين بين المبتدأ وخبره إذا طال الفاصل بينهما ؛ لأنهما في حكم القولِ ومقوله .

وفتح باب التبرع من الأمة ، والعمل على إيصاله ، والتمسك بكلمة الحق عن واقع الرقعة والأمة ، والصبر على المزايدين باسم الإسلام والعروبة.. بل بدأ الجِدُّ الصهيوني والصليبي في تحريك عوامل الفرقة والتجزئة في بلاد الخيِّرين بعد هدوء رياح الثورات على العملاء .. مع أن أولئك الخيِّرين هم دوحة العروبة بلا خُلْطة ، وأهل الرسالة الإسلامية ، وحماتها بلا وشب .. ولقد أحكموا الحكومة الإسلامية فيما تحت يدهم على الرغم من كل الضغوط العلنية والخفية التي تسعى إلى التجزئة ، وتعطيل حدود الله تحت ستار التصوُّف الدولي وهو ملة غَيرِيَّة وليس نِحْلَة طارئة ، وأجهزةِ حُرِّيَّات الأديان التي يديرها كل علماني وحاخام ؛ فتحقق في أهل ذلك العصر والمصر مفهوم الطائفة المنصورة التي لا يضرها من خذلها إلى يوم القيامة.. والمضحك المبكي أن ما تقرؤه فيما هو سيَّار في عالمنا العربي يتحسس شفاءنا بمضاعفة عِللنا لا بالتخلص منها بعد العبارات الجوفاء الملحونة ــ مثل: سلطوية ، وتموقع انتهازي ، والشّعبَوِيَّة ، والجهوية[٣٥] .. إلخ.. إلخ ــ ؛

---

(٣٥) الجهة أصلها « الوجه » .. حُذفت الواو التي هي فاء الكلمة ، وعُوِّض بدلها الهاء ؛ فوزنها « علة » .. ووَجْهٌ وجِهَةٌ بمعنى واحد .. إلا أن الواو والهاء لا يجتمعان في المصادر ؛ فتقول من وعد : عدة .

والوجه (الاسم) كان في الأصل مصدر « وَجَهَ » الفعل الثلاثي ؛ فأُهمل هذا الفعل ، وأعمل «وجَّه » الرباعي المضعَّف.. والنسبة إلى « جهة » جِهِيٌّ ؛ لأن هذه النسبة هي القاعدة في كل مصدر صحيح محذوف الفاء مثل صِفِي في صفة ؛ إذن الصواب : «جِهِيَّة» ، و«جهي» .. والأولى زيد فيها مع ياء النسب تاء تأنيث مثل عتيبية وقحطانية.. ولعلهم راعوا تأنيث الجماعة والفرقة ؛ فقالوا : جهمية ، ودهرية ، ومزدكية وعلوية .. أما الجهوية فلا تصح نسباً إلى الجهة التي أصلها « وجه » [ش احمد يوسف القادري] .

ففي القطر الكبير ـ الذي لا يُعرف حاكمُهُ السري ، ويُقتل فيه النساء والأطفال والشيوخ بالعشرات والمئات ـ نجد الآفة عند مثقفيه : الانقسام اللغوي مع أن هذا نتيجة أعباء وليس سبباً ، وليس (على علاته) بذلك المستوى من الخطر ما ظل الولاء للإسلام قائماً ؛ لأن العربية مقدسة من المسلم ، ولأن العروبة طريق بلاغٍ ضروري للمسلم الأعجمي.. ونجد الآفة في المصالح الفئوية التي تجعل اسم الشعب مزاداً علنياً !! .. وهذا أيضاً نتيجة كيد لا سبب ؛ لأن الفئوية المؤثرة أيديولوجياً دخيلة.. أما الفئوية الإقليمية والجنسية فلا أثر لها على مدى التاريخ في كل قطر هُوِيَّته الإسلام ؛ فما بالك بهوية العروبة والإسلام معاً ؟!! .. ونجد الآفة عند مثقفيه في روح التغريب ــ بالغين المعجمة ــ في ظل الانفتاح الليبرالي ووطأة العولمة !!.. وهذا متأخر جداً ؛ لأن التغريب مصاحب لسقوط الخلافة ، وطرد المستعمر عسكرياً (؟!!) ، وفرض القيادات الخاملة ، وفصل الأمة عن تاريخها ودينها بفعل تلك الرموز الوطنية (ادِّعاءً) ، أو النُّخَبية ، أو المقاومة للاستعمار ، أو الداعية للوحدة.. وإنما الذي استجد نقل التغريب من حالة خيارٍ باسم كل المغريات والمسوِّلات الدعائية إلى تسييس إجباري لا مفر منه.. وهذا الوعي المشوَّه يُلحِق بالهزيمة والعلل كلَّ الشمعات المضيئة المدرجة في عموم « رموز الفرنكوفيلية » ممن لا يفكر تفكيراً فرنسياً مثلاً كمالك بن نبي ومالك حداد.. وهناك أيضاً فرنكفونيون بالنون[٣٦] .. كأن الكاتب يتحدث من قاموس اللغة

---

(٣٦) الفرنكفوني هو الذي يتحدث الفرنسية اعتيادياً في بعض حالات الاتصال على الأقل سواء كانت الفرنسية لغته الأصلية أو لغة ثانية .. والفرنكفولي هو الذي يحب فرنسا والفرنسيين ويدعم السياسة الفرنسية .. [البقاعي] ..

العربية وهو في موضع الدفاع عنها !! .

قال أبوعبدالرحمن : إنني لست ضد هذا الوعي في مثل نقده لتهجُّم زعيم على تدريس الانتماء العربي والإسلامي في حالة الرعاية لملتقى القديس أغوسطينوس .. وإنما أقول : هذه الأوشاب نتائج لا أسباب ، وذاك الزعيم وُجد في حلقة متصلة على مدى نصف قرن[٣٧] .

والكتاب الإسلامي هم جديد راهن ؛ لأن علماء المسلمين وأئمتهم خلال المجد التاريخي لأمتنا عُنوا بكل ما يتعلق بالشريعة المطهرة عقيدة وفقهاً وسلوكاً وأصولاً وحديثاً وتفسيراً .. ولا أظن أن أمة من الأمم تضاهيهم بكثرة الموروث في هذا المجال ، ووجد عندهم ـ بشحٍّ كبير ـ معالجة لشرح وجهة النظر لنصوص الشرع على نحو ما يسمى الآن بالكتاب الإسلامي أو الفكر الإسلامي ، وذلك: إما في مؤلفات خاصة ككتاب العامري عن محاسن الإسلام ، وكذلك كتاب البخاري.. وإما في فصول متناثرة كدفاع الشافعي عن السنة ، وبسط ابن حزم لإعجاز السيرة المصطفوية المطهرة بأسلوب أدبي ، وكمعالجة شيخ الإسلام ابن تيمية لشبهة انتشار الإسلام بالسيف في مواضع من كتبه .. ولم يُشيحوا عن هذا الجانب في مأثورهم لزهادة فيه أو عدم قدرة عليه ؛ فهم أقدر على فلسفة هذا الجانب .. وإنما تركوه لعدم الحاجة إليه ؛ فليس في مجدهم التاريخي أمم علمانية تفصل

---

(٣٧) انظر جريدة الحياة العدد ١٣٩٩٧ في ٢١/ ٤/ ١٤٢٢هـ استطلاع بوعلام رمضاني ، وهو كلام عن تجزئة بغيضة تتعلق باللغة في قطر عربي مسلم .

سلطان دين الله عن حياة المسلمين في مجتمعهم ، واليوم أرى من واجب العالِم المسلم الذي تضلَّع في دين الله فقهاً وحذقاً أن لا يبتلعه روتين العمل الأكاديمي ، بل عليه أن يُفرغ شيئاً من وقته لدراسة الفكر المعاصر خيره وشره ؛ ليبسط من خلال ذلك فلسفة الفكر الإسلامي ، وله الغلبة دائماً ؛ لأنه يُحاجُّ بخبر خالق الحقيقة المعصوم وَحْيُه من الجهل والسهو والعبث .

ولسنا بحاجة إلى هذا التراكم في الفقه والتفسير وشروح الحديث إلا ما كان من باب الإضافة بحججٍ علمية مستجدة .

قال أبوعبدالرحمن : الكتاب الإسلامي مصطلح حديث يبحث عن قضايا وجدت لفتات عنها في كتب أئمة علماء المسلمين من السلف الصالح، وتناولها المعاصرون بإيقاع لذيذ صياغة واستقراء كاستقراء الدلائل على حقيقة أن خالق الخلق أعلم بما يصلحهم، وأن خالق الخلق أولى بالتشريع لهم .. قال تعالى : ﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ﴾ ، وقال سبحانه : ﴿أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ﴾ ؛ فالشرع أمره ، والعباد خلقه.. وكاستقراء ظاهرة التدين في الخلق وأن الإنسان عابد بالفطرة وإنما يختلف المعبود ، وكالعلم بظاهرة توسُّع القرآن في العقيدة وتوسع السنة في الفقه، وأن القرآن استمر في تقرير العقيدة بعد أن آمن بها الناس، وكاستقراء أحمد أمين للفخر والحماس في أدب العرب استقراءً أبرز أن الشعور القومي معدوم في الأمة العربية، وإنما هو شعور قَبِلي ، وكاستقراء سيد قطب في تفسيره لسورة الأنعام ـ مع كثرة الأخطاء في تفسيره ـ

مقومات التجمع الأرضي من القبيلية والقومية والوطنية ، وأنها أفلست في تحقيق معنى أمة تسعد بها البشرية ، وأن العقيدة ضرورة لتجمُّع الأمة ووحدتها ، وأن العقيدة الصحيحة هي التي ينبثق عنها السلوك السوي للأمة في سياستها ونظامها وإدارتها وفنونها وآدابها .

قال **أبوعبدالرحمن** : هذه المسائل وأمثالها إذا كُتبت بأسلوب أدبي جميل واستقراء واستعراض سُمِّيت بعرف العصر الحديث كتاباً إسلامياً ؛ والكتاب الإسلامي حقل معرفي جديد، وهو أمشاج من الفقه والعقيدة والفلسفة والآداب والأخلاق، وشرطه أن يكون نموذجاً للمقالة الفنية .. والعلماء الذين دفنتهم الأكاديمية بين السبر والتقسيم والجمع والطرح وإثقال الحواشي بالتعليقات والتخريجات : يُحتاج إليهم في تنغيم بعض قضايا الكتاب الإسلامي من نواحي تخصصهم، ولا يكفي أن من كتبوا في هذه المسائل ذوو إيقاعات خلابة، بل لكل عالم إيقاعه العلمي إذا حذق الإيقاع الأدبي .

والعنصر الجمالي ـ مع قوة البناء الفكري ـ ضرورة للكتاب الإسلامي؛ لأنه يُكتب لاستجاشة عواطف الدهماء بفكر ومنطق، ويُعبَّر عن الكتاب الإسلامي بأنه حقل الفكر الإسلامي، ويُراد بالفكر الإسلامي والدراسات الإسلامية في العصور الحديثة ما يدور على المطالب التالية :

أ- الكشف عن حقيقة مبادئ الإسلام وأحكامه العامة من ناحية عدله وحكمته وما فيه من مصالح الأنام .. أي تنقيته من ركام الحضارات والفلسفات وظنون المفكرين، وهذا المطلب يُعنى بالاستدلال على صحة الإسلام وعصمته بشتى وسائل الاستدلال .

ب- الاستـدلال من الإسـلام نفسـه على قضـايا أسـاءَ فهم الحكم الإسلامي فيها مفكرو العصر وقادته كفصل الدين عن الدولة، وإباحة الغناء والتصوير بإطلاق، وبعض قضايا المرأة كالحجاب .. إلخ .

ج- محاكمة الشبهات التي أثيرت حول الإسلام .

د- محاكمة المبادئ والمذاهـب والأيديولـوجيـات التي يتطلـع إليها بعـض المسلمين كالماركسية والوجودية .

هـ- الدفاع عن عصمة الإرث الإسلامي، وأنه وحي معصوم، مع الدفاع عن أصالة التراث لدى المسلمين، والدفاع عن مواهبهم وعطائهم الحضاري.

و- إنصاف التاريخ الإسلامي والدفاع عن رجاله، والدفاع عن قضايا المسلمين في هذا العصر.. ولا ريب أن شرح وجهة النظر الإسلامية من جميع هذه المطالب رد فعل لمحاولة اليهود والنصارى والعلمانيين الهيمنة على عقول المسلمين وعقائدهم وممتلكاتهم وكيانهم .. ويوم كانت الهيمنة لتاريخنا الإسلامي كان طرح الفكر الإسلامي بهذه الكيفية شبه معدوم، وإنما وجدت إضاءات دعت لها الحاجة ككتابة ابن عامر عن محاسن الإسلام وأنه لم ينتشر بالسيف، وما عدا ذلك فكان تخصصاً علمياً للرد على المتكلمين وأهل الأديان، أو كُتباً لتعليم الفقهاء صحة الاستنباط ككتب الشاطبي وابن عبدالسلام عن الإسلام ومصالح البشر.

ومن خصائص الكتاب الإسلامي استمداده بعض مادة البحث من علم العصر ونظامه وثقافته؛ فمن تعرض مثلاً للقلق نتيجة الإلحاد، أو تعرض للآثار السيئة لتحديد النسل الموجَّه: فمن عُمْق منهجه أن يدلل بإحصاءات

ومقارنات من واقع السلوك الرديء في العصـر الحديث .. على أن هذه الظاهرة ليست أغلبية ولا مقصودة .

أما الأساليب الإنشائية فهي ظاهرة بلا ريب، وهذه منقبة لا مثلبة ما دام الأسلوب فنياً مؤثراً ؛ لأن التحرش بأهل الإسلام ودينهم كان بأساليب إنشائية عائمة مضلِّلة ؛ فلا يتبدَّد تحرشهم إلا بأساليب إنشائية فنية صادقة مخلصة، ولأن المكتوب لهم ـ من معارضين ومؤيدين ـ مثقفون وليسوا علماء؛ فلا يصلح لهم إلا طرح الفكر بأسلوب أدبي، أما الطرح العلمي فمجاله الكتب المتخصصة ، ومهما تفنن المفكر المسلم في الأسلوب الأدبي فليس في هذا المنهج إسراف .. وبدايات الكتاب الإسلامي كانت من قبل علماء ذوي تخصص في الفقه والحديث.. إلخ كتبوها في الرد على العابثين، وهي كتب علم ونص ونقل، وليست من الكتـب الفنيـة التي تشرح وجهة النظر الإسلامية مستشهدة بالفكر وعلوم العصر .

أما ما يحسبـه بعض الناس بدايـات من كتابات جـوهري طنطاوي والطهطاوي والأفغاني ومحمد عبده فلا أعتبره بداية للكتاب الإسلامي ، وإنما هو بداية أعبائه، وإنما وجدت البدايات عند العقاد وتبلورت لدى آل قطب والغزالي والمودودي والنـدوي ومالـك بن نبي والبهي مع تحفظ في بعض الجزئيات ، ومـع أخطاء عقدية وتكفيرٍ مجمل عند بعضـهم .. ومهمة المفكر المسلم تتغير حسب حاجة عصره وحسـب الأهم فالأهم، وأما الثوابت فكلها مشتقة من الصدق والنزاهة والأهلية في تحري مراد الله؛ فيكون عمله خالصاً لوجه الله، ويحرص على أن يكون صواباً أي موافقاً

لمراد الله ، ومن الثوابت المشتقة من تلك الأمجاد :

أ- اليقين بأن الإسلام تنزيل الله والعلم والعقل خلق الله؛ فإذا حقق مراد الله ثبوتاً ودلالـة فليكن على يقـين بأن حجتـه غالبـة ألبتـة، وأن كل ما سيواجهه شبهة لا حجة .

ب- التحرر من نير الإرهاب الفكري المموَّه بكشوف العلم الحديث؛ فيتيقن بأن في العلم وهماً وظناً وحقيقة، وأن قطعي العلم لا يعارض قطعي الشرع؛ لأن أرباب العلـم يحاولـون اكتشـاف حقيقـة، والشرع خبر خالق الحقيقة .

ج- التحرر من التزمت والتخثُّر والتقليد وادعاء أن فهم عالم بعينه أو علماء هو مراد الشرع الصحيح، بل يستعمل المفكر كل مواهبه ومعارفه لفهم الشرع، وأهم شيء في هذا : التسلحُ بلغة العرب وفقهها ، والتسلح بالعلوم العقلية كالمنطق وآداب البحث والمناظرة حتى لا يقيس مع الفارق، أو يفرِّق بين متماثلين، أو يُسوِّي بين القطعي والراجح والمحتمل والمرجوح .. إلخ

د- ألاَّ يبتلعه العمل الأكاديمي التخصصي عن ملامسة قضايا الإسلام والمسلمين بأي منهج علمي وأسلوب فني مؤثر حسب مقتضيات عصره ، وألاَّ يقف موقفاً متشدداً في الجزئيات التي يسع فيها الاختلاف، بل عليه أن يبصِّر الناسَ إلى طرق الاستنباط الصحيحة، ويحض على الأهلية والنزاهة والصدق (أي خلوص النية لله في كل عمل اجتهادي) .

هـ- أن تتسع ثقافته في معارف عصره وفكره، ولكن لا يحل له أن يعالج أي جزئية من هذه الثقافات ـ من وجهة نظر الإسلام ـ إلا بعد اجتهاد

مضنٍ في الحكم الشرعي ؛ فإذا حقق مراد الله بيقين أو رجحان فليتكل على الله ويعلن اجتهاده ولا يبالي من متزمت يخالفه، ولا يتملق المثقفين من غير ذوي التخصص في مسائل الشريعة؛ لينال سمعة شعبية زائلة ؛ بل يعلن اجتهادَه إذا كان في قرارة قلبه لا يخاف لقاء الله وهو على ذلك الاجتهاد، بل ويتشوق إلى لقاء ربه وهو بذلك الاجتهاد .

قال **أبوعبدالرحمن** : وخشينا عقم الكتاب الإسلامي مدة صرف الجهد الفكري فيها للإقناع بالإسلام.. وكان ذلك الإقناع قائماً من حجج علمية فكرية وثقافية وعمومات شرعية وعقيدية تبتعد عن ألق وتدفُّق التخصص الجزئي .

والسر في رفـع مستـوى الكتـاب الإسـلامي بالتخصـص العلمي أن للمسلمين معارف ليست لغيرهم؛ فلهم كتاب الله يَسَّر الله حفظه، وتعبدنا بتلاوته، وفي ديننا صلوات تحتاج إلى أذكار وأدعية، ووظائف تحتاج إلى أدعية موظفة، وكل ذلك يحتاج إلى حفظ .

ويقوم ديننا على علوم مساعدة كالنحو ومتون اللغة، ومبادئ أصولية في المصطلح وأصول الفقه، وكل هذه تحتاج إلى حفظ ليكون المسلم حاضر الفقه في الدين .

وحديث المصطفى ﷺ فيـه الصحيـح والحسـن والضعيـف والخاص والعام، وهو تبيان للقرآن الكريم، ويحتاج الأمر إلى علـم ودرايـة بنقلتـه ورواته، وكل ذلك يحتاج إلى حفظ ؛ ليعلم المسلم ثبوت النص المنسوب إلى دينه قبل أن يعرف فقهه .

وجاء الدين لأمة أمية أناجيلها في صدورها، والحفظ لديها ملكة، واستمر شعار « كل حافظ إمام » شعاراً لأعصار أهل الإسلام حتى جاءت مناهج التعليم المرتبطة بالنهضة العربية الحديثة المؤسسة على ثورة فرنسا الحديثة ، وهي ثورة نمت في حضانة الماسونية وشعارها : الحرية + المساواة + الإخاء.. جاءت هذه المناهج فألغت مَلَكَة الحفظ وجمَّدتها، واتكلت الأجيال على دعوى فهم المعنى.. هذه مناهج تعليمية تربوية في العالم العربي .

إن الاهتمام بالعقل البشري كما هو في الحكم الشرعي إذ جعله الله شرطاً للتكليف ، وشاهداً على إحقاق الحق وإنكار المنكر ضرورة للكتاب الإسلامي ، والاهتمام بالعقل البشري كما هو في الفلسفات المعاصرة : المتكالبة ، المتعددة الأسماء ، المتفقة على غسله وإفراغه من كل يقين وإيجاب ، وشحنه بكل خبال وسلب : له الضرورةُ نفسها .

لقد كان تاريخنا يعاني عدة قرون من جنوح الاعتزال الداعي إلى تقديس العقل وتأليهه، فأثمرت حسبة علماء المسلمين واجتهادهم اجتهاداً خيِّراً في معرفة آفاق العقل حينما يكون منتجاً للبرهان، ومعرفة دوره حينما يكون قصاراه تلقي المعرفة كما هي.. أما صراع الفلسفات الراهنة فهو أعنف وأخطر؛ لأنه يريد أن يسرق منا عقولنا مع أنه يُنمِّي فينا دعوى العقل؛ فتقوم علينا حجة الله بما منحنا من عقل، وتقوم علينا حجته بما فرطنا فيه من نعمة العقل.

إن العقل البشري اليوم في جنوح إلى التطلع والاستعلاء ؛ فلا بد أن يتعامل

علماء المسلمين مع العقل البشري بوعي وأهلية ، وأن يَصْدروا في تعاملهم عن إيمان علمي ، ودِيننا قائم على الإيمان العلمي كما بيَّنتُ ذلك في كتابي عن هذا الموضوع ؛ ولهذا حررتُ كتابي هذا عن الفكر الإسلامي ، والله المستعان .

وكتبه لكم

أبو عبد الرحمن ابن عقيل الظاهري

ـ عفا الله عنه ـ

تم الفراغ منه فجر يوم الخميس الموافق ٢٠/٨/١٤٢٤هـ (١٦ أكتوبر ٢٠٠٣م) بالرياض ، ثم تمت المعاودة متصف الليلة التي صبيحتها يوم الجمعة الموافق ١١/١٠/١٤٢٤هـ بجفر الباطن ، ثم تمت المعاودة بجدة في أول الثلث الأخير من الليلة التي صبيحتها يوم الأحد الموافق ١٨/٤/١٤٢٥هـ الموافق ٥ يونيو/ حزيران عام ٢٠٠٤م بجدة ، ثم تمت المعاودة والفراغ النهائي مغرب اليوم الذي صبيحته يوم الأربعاء الموافق ٨/١٢/١٤٢٥هـ [١٩ يناير ٢٠٠٥م] بالرياض ، ثم تمت معاودة التصحيح فجر يوم الثلاثاء ١٤/١٢/١٤٢٥ [٢٥ يناير ٢٠٠٥م] . والحمد لله بدءاً وعوداً ، والحمد لله رب العالمين وسلام على عباده المرسلين .. سبحان ربك رب العزة عما يصفون وسلام على المرسلين .

* * *

[قال الإمام أبو محمد ابن حزم رحمه الله : « ولله تعالى في كل لغة اسم ؛ فبالفارسية أورمز ، وبالعبرانية أذوناى ، والوهيم ، والوهاء ، وإيل.. وباللاتينية داوش ، وقريطور .. وبالصقلبية بغ ، وبالبربرية يكش .. فإن حلف هؤلاء بهذه الأسماء فهي يمين صحيحة ، وفي الحنث فيها كفارة »[٣٨] .

]

(٣٨) المحلى ٨/ ١٩٤ .

معنى أن الفكر إسلامي :

الفصل الأول : حديثا « الطائفة المنصورة » و « تداعي الأمم » ، والتمسك بالبرهان العلمي وفق علم الدلالة أمام التحديات .

الفصل الثاني : مسؤولية العقل .

الفصل الثالث : علم الدلالة لا شهوة المصطلح .

الفصل الرابع : ممارسات غير دلالية .

* * *

[قال راندولف تشرشل في كتابه «حرب الأيام الستة» : «لقد كان إخراج القدس من سيطرة الإسلام حلم المسيحيين واليهود على السواء.. إن سرور المسيحيين لا يقل عن سرور اليهود.. إن القدس قد خرجت من أيدي المسلمين، وقد أصدر الكنيست اليهودي ثلاثة قرارات بضمها إلى القدس اليهودية، ولن تعود إلى المسلمين في أية مفاوضات مقبلة ما بين المسلمين واليهود »(٤٢) .

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله : « الإنسان مُحِسٌّ بأنه عالم.. يجد ذلك ويعرفه بغير واسطة أحد، كما يحس بغير ذلك، وحصول العلم في القلب كحصول الطعام في الجسم» (٤٣) .

---

(٤٢) قادة الغرب يقولون ص٢٦ .

(٤٣) مجموع فتاوى شيخ الإسلام ٤/ ٤١ .]

[قال الكاتب الصهيوني « إيرل بوغر » في كتابه « العهد والسيف » الذي صدر عام ١٩٦٥ ما نصه بالحروف : « إن المبدأ الذي قام عليه وجود إسرائيل منذ البداية هو أن العرب لابد أن يبادروا ذات يوم إلى التعاون معها؛ ولكي يصبح هذا التعاون ممكناً يجب القضاء على جميع العناصر التي تغذّي شعور العداء ضد إسرائيل في العالم العربي، وهي عناصر رجعية تتمثل في رجال الدين والمشايخ »(٤٤) .

ويقول إسحاق رابين غداة فوز جيمي كارتر برئاسة الولايات المتحدة، ونقلتْ قولـه جميع وكالات الأنباء : « إن مشكلة الشعب اليهودي هي أن الدين الإسلامي ما زال في دور العدوان والتوسع، وليس مستعداً لمواجهة الدول ، وإن وقتاً طويلاً سيمضي قبل أن يترك الإسلام سيفه »(٤٥) .

❊ ❊ ❊

دقـــات قلـــب المـــرء قائلـــة لـــه

إن الحـــياة دقـــائق وثوانـــي

ديوان أحمد شوقي نهضة مصر ٢/ ٥٧٥

من قصيدته في رثاء مصطفى كامل .

---

(٤٤) الإسلام في المعترك الحضاري ص٢٨ (عمر بهاء الدين الأميري ـ طبعة دار الفتح ، بيروت عام ١٩٦٨م) .

(٤٥) العدد (٣٢٤) من مجلة المجتمع الكويتية / ١ نوفمبر ١٩٧٦م .. كل ذلك عن قادة الغرب يقولون ص٣٣ .]

الفصل الأول: حديثا «الطائفة المنصورة» و« تداعي الأمم» ، والتمسك بالبرهان العلمي وفق علم الدلالة أمام التحديات :

* * *

[قال لورانس براون : كان قادتنا يخوِّفُوننا بشعوب مختلفة، لكننا بعد الاختبار لم نجد مبرراً لمثل تلك المخاوف.. كانوا يخوفوننا بالخطر اليهودي، والخطر الياباني الأصفر، والخطر البلشفي.. لكنه تبين لنا أن اليهود هم أصدقاؤنا ، والبلاشفة والشيوعيـون حلفاؤنا ، أما اليابانيون فإن هناك ديموقراطية كبيرة تتكفل بمقاومتهم.. لكننا وجدنا أن الخطر الحقيقي علينا موجود في الإسلام، وفي قدرته على التوسع والإخضاع، وفي حيويته المدهشة(٤٦) .

ويكرر هنا قول غلادستون بقولـه : ما دام القرآن موجوداً في أيدي المسلمين، فلن تستطيع أوربا السيطرة على الشرق، ولا أن تكون هي نفسها في أمان(٤٧) .

ويقول المستشرق غاردنر : إن القوة التي تكمن في الإسلام هي التي تخيف أوربا(٤٨) .

---

(٤٦) المجلد الثامن صفحة ١٠/ لورانس براون، نقلاً عن التنصير والاستعمار ص١٤٨ .

(٤٧) الإسلام على مفترق الطرق / ص٣٩ .

(٤٨) التبشير والاستعمــار ص٣٦/ طبعة رابعة .. كل ذلك عن قادة الغرب يقولون ص٣٤-٣٥ .

]

[قال هانوتر وزير خارجية فرنسا سابقاً : لا يوجد مكان على سطح الأرض إلا واجتاز الإسلام حدوده وانتشر فيه؛ فهو الدين الوحيد الذي يميل الناس إلى اعتناقه بشدة تفوق كل دين آخر [٤٩] .

ويقول ألبر مشادور: من يدري .. ربما يعود اليوم الذي تصبح فيه بلاد الغرب مهددة بالمسلمين يهبطون إليها من السماء ؛ لغزو العالم مرة ثانية ، وفي الوقت المناسب ؟!.. ويتابع : لست متنبئاً ، لكن الأمارات الدالة على هذه الاحتمالات كثيرة ، ولن تقوى الذرة ولا الصواريخ على وقف تيارها .. إن المسلم قد استيقظ وأخذ يصرخ : هأنذا ، إنني لم أمت ، ولن أقبل بعد اليوم أن أكون أداةً تُسيِّرها العواصم الكبرى ومخابراتها[٥٠] .

ويقول أشعيا بومان في مقال نشره في مجلة العالم الإسلامي التبشيرية : إن شيئاً من الخوف يجب أن يسيطر على العالم الغربي من الإسلام .. لهذا الخوف أسباب منها أن الإسلام منذ ظهر في مكة لم يضعف عددياً ، بل إن أتباعه يزدادون باستمرار .. ومن أسباب الخوف أن هذا الدين من أركانه الجهاد[٥١] .

---

(٤٩) الفكر الإسلامي الحديث وصلته بالاستعمار الغربي ، ص١٨ .

(٥٠) لم هذا الرعب كله من الإسلام للأستاذ جودت سعيد .

(٥١) التبشير والاستعمار ، ص١٣١ .. كل ذلك عن قادة الغرب يقولون ص٣٥-٣٦ .]

نشهد بشهادة رسول الله ﷺ القاطعة (كما ثبت في الحديث الشريف الصحيح في نصه ودلالته) : أن هناك طائفـة منصـورة، على الحق ظاهرة، لا يضرها من خذلها إلى يوم القيامة؛ فكلمة « لا تزال » تفيد معنى الزمن الحاضر الذي قيلت فيه.. أي في عهد الرسول ﷺ ، وتعطي معنى الاستقبال المستمر الدائم الذي لا ينقطع إلى يوم القيامة .. والمشاهد أن بعض الأماكن على مدار التاريخ تخلو من طائفة منصورة، وربما لا يخلو مكان من فرد أو أفراد محقِّين متمسِّكين بشرع الله، ولكنهم غير منصورين ولا متغلبين على خذلان غيرهم لهم؛ فالبلاد الإسلامية العربية التي لا تحكم بشرع الله لا نقول عن صلحائها : إنهم الطائفة المنصورة الظاهرة التي لا يضرها من خذلها.. بل هم طائفة صالحة، ولكنهم غير منصورين، وغير ظاهرين، وقد خذلهم من ضرَّهم؛ فليس عندنا ضمان من قرآن ولا سنة : بأن كل مكان فيه طائفة مُحِقَّة تكون منصورة، وإنما عندنا ضمان من الرسول ﷺ زماني لا مكاني، وهو أنه لا تخلو الدنيا ولو في لحظة واحدة من وجود طائفة منصورة .. ولكن هذا قد يكون في مكان واحد، ولو في دولة واحدة، أو مقاطعة واحدة ، أو إقليم واحد ، أو قرية واحدة .. توجد وستوجد ووجدت طائفة في كل زمان في مكان ما : تزع بسلطان الله ما تقتضيه إقامة حدود الله في أحكامها وعقوباتها ونفوذ عقودها والفصل بين الناس في خصوماتهم، وليس هذا المكان الذي تُقام فيه حدود الله ويظهر فيه ذووه بالحق ولا يضرهم من خذلهم مكاناً معيناً، قد يكون معيناً متميزاً في زمن ما، ولكنه ليس متعيناً في كل زمن .. وأوضِّح هذا بعدة ظواهر :

الظاهرة الأولى : وجود الإسلام في عمومه؛ فالإسلام لم ينقطع عن المعمورة في لحظة ما.. إذا انحصر الإسلام في الأندلس مثلاً انتشر في تركيا، وهكذا .

والظاهرة الثانية : إحياء شعائر إسلامية، وإماتة بعضها ؛ فإذا وجد الفساد الخُلُقي في بلاد كثيرة فلن تنعدم المحافظة في بلد ما ، ولسنا نعني بصلاح المجتمع خُلُوه من فساد تحت الخفاء ؛ فهذا ما لم يمكن ؛ فقد وجد الفساد في عهد الرسول ﷺ خفاءً، وظهر منه ما ترتب عليه إقامة الحد في عهده أيضاً.. وإنما نعني بالفساد الاجتماعي شيوع الفاحشة علناً دون خفاء، ونعني بالصلاح الاجتماعي خفاء الفاحشة والتستُّر بها، وفعلها على وَجَلٍ وخوف من وازع السلطان.. وإذا فقدت الحسبة الشرعية في بلاد ما فلن تُفقد في بلد ما، وإذا شاع الربا في بلاد ما فلن تعدم بلاد ما تمنعه وتحرمه.. وهكذا وهكذا .

والظاهرة الثالثة : وجود طائفة مؤمنة ؛ وليس هذا فحسب.. ولكنها منصورة، ظاهرة على الحق، لا يضرها من خذلها.. والمسلمون اليوم ليسوا كلهم طائفة منصورة غير مخذولة.. كيف يكون هذا ونحن في ذنب الدنيا والرسول ﷺ أخبر أن الأمم تتداعى على المسلمين، وأن المسلمين كثرة ولكنهم غثاء كغثاء السيل؟.. كيف يكون هذا وهم كلهم لا يحتكمون إلى شرع الله، وإنما يحتكم إلى الشرع بعضهم لا كلُّهم ؟.. كيف يكون هذا وهم مذاهب وفرق كثيرة وحكومات متعددة المنزع، وكثير من تفرقهم يمس جوهر العقيدة؟ .. إذن الطائفة المنصورة من انتماء واحد معيَّن، وليس من كل الطوائف .. وكلٌّ يدَّعي أنه الطائفة المنصورة المحقَّة ، ولكن الناس لا

يُعطَون (بالبناء للمجهول) بدعواهم، وإنما يُعطون بالبراهين والدلائل.. لابد من البحث عن مواصفات الطائفة المنصورة لنميِّزها من الطوائف الدخيلة المدَّعية.. إننا إذا بحثنا عن مواصفات الطائفة المنصورة في هذا الزمن وجدنا عليها دلائل وشواهد تاريخية ونصية؛ ففي الحديث «لا يضرهم من خذلهم»؛ فكلمة «خذلهم»: تقتضي عهداً أو شبهه بين الخاذل والمخذول؛ إذ لا خذلان إلا بعد عهد .

والمشاهد في تاريخنا اليوم أن كلمة علماء المسلمين ـ سواء أكانت في صورة تضامن إسلامي، أم رابطة، أم مؤتمرات إسلامية، أم فتاوى من العلماء ـ مجمعة على أن الحدود الشرعية يجب أن تقام، وأن الحكم للقرآن والسنة، وأن السماح ببيع الخمر وإباحته وفتح أسواق الدعارة والحانات كل ذلك حرام لا يجوز، وكل ذلك محادَّة لله ولرسوله .. وبعض الدول الإسلامية والعربية تبيح حكوماتها الفاحشة علناً، ولا تعبأ بالمجاهرة بالفطر في رمضان .

قال أبوعبدالرحمن : فإنْ جئتني بدولة واحدة، أو مقاطعة واحدة ، أو قرية واحدة : تحكم بالشريعة المحمدية وتقيم الحدود والحسبة، ولا يجرؤ الفاسق فيها بإعلان فسقه مجاهرة : فاعلم أنها الطائفة المنصورة، واعلم أن غيرها من المسلمين خاذل لها؛ لأنه لم يلتزم العهد الذي يجمع المسلمين في تضامنهم ومؤتمراتهم .

والدليل على أن المسلمين على عهد واحد ــ أي على ذلك العهد الذي مضى بيانه ــ الذي يطبق في بلد ما أو قرية ما ولا يطبق في البلاد الأخرى :

أن أي حامل علم شرعيٍ يفتي بمخالفة القطعيات من الإسلام كإباحة الخمر أو البغاء لا مكان له في مقاعد المسلمين في مؤتمراتهم وتضامنهم ورابطتهم، وأن من يعطِّل الحدود ، ويبيح الفاحشة علناً من الدول لا يزعم ولا يزعم العلماء فيها أن ذلك حكم الإسلام ، بل هم يعرفون أنهم مخالفون عهد الإسلام الذي يجتمع حوله المسلمون، وإنما يعللون ذلك بمسوغات غير إسلامية كالسياحة واحتذاء الأمم المتمدينة .. وعلماء تلك البلاد لا يملكون من الأمر شيئاً؛ إذن أعلم علم اليقين أن الطائفة المنصورة اليوم هي الدولة التي تحكم بشرع الله، وتقوِّم أمورها التي لا سعة لها فيها من فكرها وتجربتها على وصاية من علماء الأمة وعدولها .. هي الدولة التي لا تحارب الله علناً بالمعاصي، ولا ينجو فيها العاصي من حد الله إلا بسِرِّية وخفاء، أو تخريج وتأويل، وربما وُجدتْ على وجه الندرة شفاعة في الحدود بأي تخريج أو تأوُّل.. هذا أمر عظيم ولكن هذا لا ينفي القاعدة العامة من القول: (بأن هذه الدولة هي الطائفة المنصورة) ؛ لأن سيرة رسول الله ﷺ وأبي بكر وعمر وعثمان وعلي وعمر بن عبدالعزيز رضي الله عنهم سير عزيزة نادرة، وأولئك في القرون الخيِّرة الممدوحة، ونحن في عصور ضعف الوازع.. وإنما المقياس في النظر إلى أن هذه الدولة ـ على الرغم من عجزها عن سيرة عمرية ـ تكون أمثل وأفضل الأمم الإسلامية حولها.. أعني أن نقص وتقصير هذه الطائفة لا يخلو من غفلة ، ولكنها لا تنام .

وقد تضعف الحسبة عند الطائفة المنصورة، ولكنها تعود إلى شبابها وقوتها ريثما تشعر الطائفة المنصورة بأنها تكاد تفقد ميزتها، وما ميزتها إلا أنها على

الحق ظاهرة، وقد تكثر في الطائفة المنصورة المحسوبية ولكنها تعود إلى نصاب العدالة منذ أن تُحسَّ بأن المحسوبية تغمط حقاً، وتربط بريئاً ؛ ذلك أن الله لعن أمة يضيع الحق بينها .

وحاشى لله من أن تتمادى الطائفة المنصورة على معصية تعلنها مع أن اللعنة تحيق بها .. لن تكون الطائفة المنصورة ملعونة قط .

وقد حدَّد رسول الله ﷺ مواصفات الطائفة المنصورة بأنها : « من كان على مثل ما كان عليه رسول الله ﷺ وأصحابه » ، ونحمد الله أن ما كان عليه رسول الله ﷺ وأصحابه من قول أو فعل محفوظ منقول بالنصوص الصحيحة الثابتة ؛ فالأمة التي تعرض أجساداً عارية، وتغمز بعيون أطفأت الخطيئة نورها بين قرع القوازيز وهز الأكتاف ليست على ما كان عليه الرسول ﷺ وأصحابه؛ لأن الرسول وأصحابه لا يغازلون الأجساد العارية، ولا يبيحون العري، بل كانوا يدنون الجلابيب، ويغضون البصر، ويخافون من فتنة الصوت.. والبلد الذي يعمُرُه مَغَبِّرَةُ الصوفية بالرقص والوَجْد والوثنية: مدد مدد.. يا صلاة الزين.. يا سيدنا الحسين.. نظرة عين يا حسين.. احفظ قلـبك.. مدد .. مدد .. إلخ .. ليس على ما كان عليـه رسول الله ﷺ وأصحابه .. وهكذا كل بدعة نَقِّبْ من تاريخها تجدها حدثت بعد الرسول ﷺ .

وإذا فُتنت أي أمة ببدعة ما قُيِّض لها من علماء الضلال من يُسوِّغها بتأويل بعيد جداً من النصوص الصحيحة ومن سيرة السلف.. تأويل بعيد يخالف مئات البراهين الواضحة اللائحة.. أو يسوغها بتأويلات بعيدة جداً

جدّاً يريد بها التكلف في رد دلالات واضحات تبطلها من مئات البراهين الصحيحة ، أو يلفقها بأحاديث كاذبة موضوعة .

قال **أبوعبدالرحمن** : ولقد احتككت بأصحاب الطرق الصوفية فوجدت المساكين يحفظون الحماقات والأضاليل والمحالات مما ينسب للبسطامي والشاذلي وياقوت العرش والبدوي.. إلخ، ولا يعرفون حديثاً صحيحاً من ضعيف، ولا يعرفون قيمة صحيحي البخاري ومسلم، ولا يفرقون بين حديث رواه الشيخان وحديث رواه صاحب مسند الفردوس.. إن من ينصح نفسه يجد الشواهد التاريخية والنصِّية عن سحنات ومواصفات (الطائفة المنصورة) ؛ فلا يسعه إلا الانتماء إليها .

* * *

قال **أبوعبدالرحمن** : وحديث تداعي الأمم علينا صحيح لا مرية في رجحان ثبوته.. ولزوم دلالته مع الحديث الصحيح: « لا تزال طائفة من أمتي على الحق منصورة » دليل قاطع على أن ما يناله منا أعداء الملة حطام مال، وأن الغثاء والوهن في عامة المسلمين باقٍ مع بقاء الطائفة المنصورة في أثناء الغربة حتى يأذن الله بما وردت به النصوص الشرعية من كون المستقبل للإسلام وأهله قبل علامات الساعة الكبرى ، وههنا وقفات :

الوقفة الأولى : لا يمكن أن يُحمل هذا الحديث على أي مصيبة حلَّت بالأمة الإسلامية قبل سقوط الخلافة الإسلامية في عهد السلطان عبدالحميد؛ لأن ما حدث تداعي أمة واحدة في عصر ، وأمة ثانية في عصر .. إلخ .. من فارسية ومغول، وبرتغال .. كما أن بعض هذه الأمم دخلت في الإسلام ؛

فحكمت بلاداً معينة بعقد الإسلام، أو جميع الرقعة الإسلامية بعقد الإسلام.. والأخيرة هي الدولة العثمانية .

أما هذا الحديث فعن أمم كثـيرة من الآفـاق في زمان واحد، ولقد حصلت بداية هذا التداعي باقتسامهم البلاد العربية والإسلامية منذ سقوط الخلافة، ثم تجدَّد هذا التداعي على جزيرة العرب بالذات ، وعلى البلاد العربية والإسلامية عامةً .

والوقفة الثانية : أن هذا التداعي لحطام الدنيا ومنافعها من مواد الطبيعة، وإستراتيجية الموقع، وليس استئصالاً للعرب والمسلمين؛ لأن التداعي على قصعة وليس على الرقاب؛ ولأن الحديث وقت التداعي نص على كثرة المسلمين، وعدم غناهم؛ ولأن الله ضامن بقاء المسلمين حتى تقوم الساعة، ولأن النصوص الشرعية تُبشِّر بعز المسلمين قبل علامات الساعة الكبرى.

والوقفة الثالثة: أن الحديث نصَّ على التداعي، والطعام، والأكل بأمن.. والخبر الشرعي إذا وقع ما يطابقه كان تفسيراً له.. والذي حصل اليوم تداعي أهل الإنجيل وهم أحلاف من أمريكا وأوربا بقيادة الصهيونية العالمية.. والمسلمون عاجزون عن ردهم ـ ما دام الأمر لم يصل إلى محاولة تصفيتهم جسدياً، وهدم مقدساتهم ـ ، والدليل على عجزهم هو ما نعيشه من الواقع الآن، ووصفهم بأنه غثاء.. والغثاء لا ثقل له، وأن الأمم تتداعى آمنة .

والوقفة الرابعة : سيظل مع هذه المحنة الجمهور الأعظم من المسلمين على وصف الرسول الكريم ﷺ من كونهم غثاء كغثاء السيل .. والوصف كناية عن الضعف، والانفصال عن الجذور ؛ لما نشاهده اليوم في جمهورهم

من الانهماك في البدع، وانقسامهم بعدد البدع، وغلبة التدروش، وما يُخِلُّ بالعقيدة من القبورية والتدين بالبدع التي لا وجود لها في السيرة العملية ولا في النصوص الصريحة، ومحادة النصوص الصريحة الصحيحة : بالنصوص الموضوعة، والمنامات، والرأي المجرد، وأخْذِ التزيُّد في الدين ممن لا تقوم به حجة.. وذلك في أمور العقيدة الواضحة البيِّنة بالسيرة العملية والنص القطعي؛ فغثائيَّتهم قلة علم بالحق، وكثرة علم بالباطل، والتديُّن به حمية وتقليد.. وغثائيَّتهم أيضاً من جهة ضعفهم فيما يلزمهم من أمور الدنيا من علم مادي يحقق لهم القوة والمنعة، وغلبتهم بحكومات لا تحقق مشاعرهم الدينية.. بل تئدها، وانشغالهم بلقمة العيش عن الجهاد بدليل نص الحديث : « حب الدنيا، وكراهية القتال » .

والوقفة الخامسة : ضَمِنَ الحديثُ الصحيح الآخر أنه ـ مع وجود ذلك الغثاء ـ لا تزال طائفة من أمة محمد ﷺ منصورة لا يضرها من خذلها إلى يوم القيامة .. والنص على نصرها يعني حفظها مع وجود التداعي من الأمم الكافرة، وكثرة الغثاء من أهل القبلة.. ويكون هذا الحفظ بقانون الدفع في قوله تعالى : ﴿ وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّفَسَدَتِ ٱلْأَرْضُ ﴾ [سورة البقرة/ ٢٥١]، وقوله تعالى : ﴿ وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّهُدِّمَتْ صَوَٰمِعُ وَبِيَعٌ ﴾ [سورة الحج / ٤٠]، وقوله : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يُدَٰفِعُ عَنِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ ﴾ [سورة الحج/ ٣٨].. وهذا الدفع مُلاحَظ في الفرد وليس في الجماعة وحسب؛ فإن الفرد ليغفل عن ربه، فيعطِّل صلاة الفجر في المسجد، ولا يصليها في وقتها، ولا يصلي بقية الأوقات في المسجد

جماعة إلا نادراً على استحياء، ويظل مُصِرّاً على معصية أو معاصٍ ؛ فيتخلَّى عنه دفع الله حتى يفيء ، فتتوالى عليه المنغِّصات في عمله ، أو ماله ، أو أهله وولده ، أو جاره ، أو يُسلَّط عليه من يؤذيه .

ويكون نصر الطائفة وحفظها بقوة عسكرية تارة، وبقانون الدفع حال ضعفها تارة؛ فيهيىء الله لها قيادة تتعامل مع الواقع، وتحاول أن تنال بالسياسة والصبر والمعادلة ما لا تقدر عليه بالقوة، وتدفع المفسدة الكبرى بالمصلحة الصغيرة بجانبها .

والوقفة السادسة : للطائفة المنصورة هذه المعالم :

١- أنها منصورة على الحق .

٢- الحق هو القيام بدين الله عقيدة وشريعة .

٣- صفة القيام ــ وإن وجد بعض النقص ــ أن يكون قادتها يحكمون بشرع الله ، ولا يسنون نظاماً يخالفه ، ولا يحمون بالسلطة أو قوة النظام ما يُخرج من الملة ، ويكون عَلَنُ مجتمعهم معصوماً من ظهور الفاحشة، والتواطؤ على فسق ، وألاَّ يُفتن المرء في دينه من دولته أو مجتمعه .

٤- كونها طائفة من أمة محمد ﷺ يعني أنها طائفة من طوائف تنتسب إلى أمة محمد ﷺ .. وتمييزها بالحكم (وهو النصر) يعني تميُّزَها في الواقع.. وهذا الواقع لابد أن يكون محبوباً عند الله بدليل « منصورة » و « على الحق ».. ولا معهود لنا في الشرع بطوائف من أمة محمد بينها طائفة واحدة على الحق إلا حديث الفرق الذي ميَّز الفرقة الناجية بأنهم من كان على مثل ما عليه محمد ﷺ وأصحابه .. والذي كانوا عليه هو السيرة العملية المحفوظة للسلف

قبل ظهور البدع .. وما كانوا عليه هو معاني نصوص الوحي المفهومة بلغة العرب في مسائل العقيدة،ولم ينقل خلاف بينهم فيها .. فكل تَدُيّنٍ حدث بعدهم فهو بدعة حكمها معروف بمقتضى قوله ﷺ : « من عمل عملاً ليس عليه أمرنا فهو رد » ؛ فمن تديَّن لله سبحانه بإحياء مولد بطقوسه الصوفية المعروفة فالأمر أمانة في ضميره يُنْظَر هل ما عنده من أقوال من ليس حجة في الشرع، ومن منامات، ومن حركات وهيئات، ومن أحاديث موضوعة ومعلولة عند علماء الحديث.. هل هذه الأشياء مما يجوز أن تُعارض به السيرة العملية، والنصوص الصحيحة، وما أجمع عليه السلف من أمور العقيدة ؟!! .. وهل يُفهم النص الشرعي الصحيح بغير لغة العرب، وبغير ضمِّ النص إلى النص وتوحيد الاستنباط حتى لا نتحكَّم ونتبع الأهواء ؛ فنأخذ بنص صحيح ونرد نصوصاً ؟!! .. مع أن جمع النصوص يُحدِّد دلالة كل نص بمفرده .. ولنعلم علم اليقين أننا لسنا متعبِّدين باجتهاد ينصر ما نهواه، بل اجتهادنا مقيد بابتغاء مراد الله ومرضاته وإن خالف أهواءنا وحميتنا .

٥- أنهم حال نصرهم، والشهادة لهم بأنهم على الحق : يعايشهم من يخذلهم فلا يضرهم.. والخذل آتٍ من جهتين :

الأولى : من جهة العهد من قبل عدوٍّ في الملة يعاهدنا فيخذلنا، فهذا لن يضر الطائفة المنصورة.. وهذا الخذلان يتبخَّر بلطف من الله يحمي الطائفة المنصورة من غير حول منها ولا طول .

الثانية : من جهة المنتسبين إلى القبلة من البدعيين، فيكونون في عداء دائم

للطائفة، وترويج أكاذيب ضدها، وتحزُّبٍ عليها .. والحق أن يكون التحزب للإسلام وأهله ؛ فلينظر المسلم إلى العالَم حوله ليتحسَّس مواقع الغثاء ، ومواقع الطائفة المنصورة ؟! .

والخبر عن تداعي الأمم علينا وحديث التداعي ورد من حديث أبي هريرة، وثوبان مولى رسول الله ﷺ رضي الله عنهما .. أما حديث أبي هريرة رضي الله عنه فرواه الإمام أحمد، فقال رحمه الله تعالى : «حدثنا أبوجعفر المدائني: أنبأنا عبدالصمد بن حبيب الأزدي : عن أبيه حبيب بن عبدالله : عن شبيل بن عوف : عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول لثوبان : « كيف أنت يا ثوبان إذ تداعت عليكم الأمم كتداعيكم على قصعة الطعام تصيبون منه؟! .. قال ثوبان : بأبي وأمي يا رسول الله : أمِنْ قلةٍ بنا ؟ .. قال : لا .. أنتم يومئذٍ كثير، ولكن يُلقَى في قلوبكم الوهن .. قالوا: وما الوهن يا رسول الله؟.. قال: حبكم الدنيا وكراهيتكم القتال»[٥٢].

قال أبوعبدالله عبدالسلام بن محمد بن عمرو علوش: تفرد به شبيل[٥٣].. قال **أبوعبدالرحمن** : شبيل ثقة قليل الحديث[٥٤] .

---

(٥٢) مسند الإمام احمد ٣/ ٢٨١ رقم ٧٨٢١/ دار الفكر / نشر المكتبة التجارية بمكة المكرمة.

(٥٣) انظر عنه تهذيب الكمال في أسماء الرجال للمزي ١٢/ ٣٧٥-٣٧٦، وتهذيب التهذيب لابن حجر ٤/ ٢٨٣ .

(٥٤) التمام الحسن (وهو تتمة جامع المسانيد والسنن الهادي إلى اقوم سنن لابن كثير) ٢/ ١٠٢ .

وقال الهيثمي: رواه أحمد، والطبراني في الأوسط، وإسناد أحمد جيد(٥٥) .

وسُئل الدارقطني عن حديث قيس بن أبي حازم : عن أبي هريرة رضي الله عنه قال رسول الله ﷺ : « يُوشك أن تداعى الأمم على أمتي كما تداعى على الثريد أكلته » ، فقال : يرويه إسماعيل بن أبي خالد .. واختلف عنه؛ فرواه مؤمل بن إسماعيل: عن عبدالعزيز القسملي: عن إسماعيل: عن قيس: عن أبي هريرة: عن النبي ﷺ .. والمحفوظ عن إسماعيل موقوفاً(٥٦) .

قال **أبوعبدالرحمن** : وروى الحديث ثوبان نفسه رضي الله عنه .. قال أبوداود : حدثنا عبدالرحمن بن إبراهيم الدمشقي : أخبرنا بشر بن بكر : أخبرنا ابن جابر : حدثني أبوعبدالسلام: عن ثوبان [رضي الله عنه] قال : قال رسول الله ﷺ : «يوشك الأمم أن تداعَى عليكم كما تداعى الأكلة إلى قصعتها.. فقال قائل: ومن قلة نحن يومئذ؟.. قال: بل أنتم كثير، ولكنكم غثاء كغثاء السيل، ولينزعن الله من صدور عدوكم المهابة منكم، وليقذفنَّ اللهُ في قلوبكم الوهنَ.. فقال قائل : يا رسول الله: وما الوهن؟.. قال : حب الدنيا وكراهية الموت(٥٧) .

---

(٥٥) مجمع الزوائد [متن بغية الرائد] ٧/ ٥٦٣ .

(٥٦) العلل ١١/ ١٥١، ونقل محققه قول البخاري في التاريخ الكبير ٢/ ٢/ ٣٤٠ : « عن عيسى بن إبراهيم : أخبرنا عبدالعزيز بن مسلم : عن ضرار بن عمرو : عن أبي رافع: عن أبي هريرة [رضي الله عنه] مرفوعاً.. وقال مؤمل : عن عبدالعزيز: عن إسماعيل بن قيـس: عن أبي هريرة [رضي الله عنه] : عن النبي ﷺ .. والأول أصح » .

(٥٧) عون المعبود شرح سنن أبي داود ١١/ ٢٧٢-٢٧٣ رقم ٤٢٨٨.. وعنه رواه البيهقي في دلائل النبوة ٦/ ٥٣٤ .

قال الطِّيبي [نسبة إلى الطِّيب] : هذا الحديث من أفراد أبي داود[٥٨] .. وقال المنذري : «أبوعبدالسلام هذا هو صالح بن رستم الهاشمي الدمشقي.. سُئل عنه أبوحاتم، فقال مجهول لا نعرفه »[٥٩] .

قال أبوعبدالرحمن : قال الذهبي : روى عنه ثقتان فخفَّت الجهالة[٦٠] .

وقال الشيخ الألباني : « أخرجه أبوداود، والروياني في مسنده، وابن عساكر في تاريخ دمشق من طرق : عن عبدالرحمن بن يزيد بن جابر: حدثني أبوعبدالسلام : عن ثوبان [رضي الله عنه] قال: قال رسول الله ﷺ، فذكره.. وهذا إسناد لا بأس به في المتابعات ؛ فإن ابن جابر ثقة من رجال الصحيحين، وشيخه أبو عبد السلام مجهول .. لكنه لم يتفرد به ؛ فقد تابعه أبوأسماء الرحبي : عن ثوبان به »[٦١] .

وقال الإمام أحمد: حدثنا أبوالنضر: حدثنا ابن[٦٢] المبارك: حدثنا مرزوق أبوعبدالله الحمصي : أخبرنا أبو أسماء الرحبي: عن ثوبان [رضي الله عنه] مولى رسول الله ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ : يوشك أن تداعى عليكم الأمم من كل أفق كما تداعى الأكلة على قصعتها.. قال : قلنا : يا رسول الله : أمِنْ قلة بنا يومئذٍ؟.. قال : أنتم يومئذ كثير، ولكن تكونون غثاء كغثاء

---

(٥٨) انظر عون المعبود ١١/ ٢٧٢ .

(٥٩) انظر عون المعبود ١١/ ٢٧٣ .

(٦٠) ميزان الاعتدال ٢/ ٢٩٥ .

(٦١) سلسلة الأحاديث الصحيحة ٢/ ٥٥٩ رقم ٩٥٨، وتابعه الشيخ حمدي محقق المعجم الكبير .

(٦٢) الصواب « المبارك » من دون ابن .. انظر إتحاف المهرة ٣/ ٥٩ .

السيل، تُنتزع المهابة من قلوب عدوكم، ويُجعل في قلوبكم الوهن.. قال: قلنا: وما الوهن؟.. قال : حب الحياة، وكراهية الموت[٦٣] .

وقال أبونعيم : حدثنا عبدالله بن جعفر: حدثنا إسماعيل بن عبدالله بن مسعود : حدثنا سعيد بن سليمان : حدثنا مبارك بن فضالة : عن مرزوق أبي عبدالله الحمصي : عن أبي أسماء الرحبي .. ثم ساقه بإسناد أحمد ومتنه إلا أنه قال : قالوا : من قلة يومئذ؟ .. قال : أنتم ذلك اليوم كثير ولكن غثاء... تنتزع .. قالوا : وما الوهن... حب الدنيا[٦٤] .

وقال الطبراني : « حدثنا محمد بن الفضل السقطي : حدثنا سعيد بن سليمان: حدثنا مبارك بن فضالة: عن مرزوق أبي عبدالله الشامي : عن أبي أسماء الرحبي : عن ثوبان [رضي الله عنه] قال : قال النبي ﷺ : يوشك أن تتداعى عليكم الأمم، فذكر الحديث »[٦٥].. قال الشيخ الألباني : « هذا سند جيد، ورجاله ثقات، والمبارك إنما يُخشى منه التدليس.. أما وقد صرح بالتحديث

---

(٦٣) مسند الإمام أحمد ٨/ ٣٢٧ رقم ٢٢٤٦٠ .

(٦٤) حلية الأولياء ١/ ١٨٢ .

(٦٥) المعجم الكبير ٢/ ١٠٢-١٠٣.. قال محققه الشيخ حمدي عبدالمجيد السلفي : رواه ابن أبي الدنيا في العقوبات، ومحمد بن مخلد البزار في حديث ابن السماك من هذا الطريق [يعني طريق سعيد بن سليمان]: عن مبارك بن فضالة .. وقد صرح مبارك في بعض الطرق بالتحديث؛ فرُفعتْ خشيةُ التدليس » .. قال **أبوعبدالرحمن** : وما ذكره فهو في سلسلة الأحاديث الصحيحة ٢/ ٥٥٩ رقم ٩٥٨.. ورواه أبوداود الطيالسي، وعنه رواه الحاكم في المستدرك ٣/ ١٥٣ بإسناده إلى أبي سلام : عن أبي أسماء.. انظر إتحاف المهرة ٣/ ٥٩ [حاشية] .

فلا ضير منه؛ فالحديث بمجموع الطريقين صحيح عندي، والله أعلم»[٦٦].

وفسَّره أبوالطيب محمد شمس الحق بقولـه : «يدعو بعضهم بعضاً؛ لمقاتلتكم، وكسر شوكتكم، وسلب ما ملكتموه من الديار والأموال»[٦٧].

وقال عن القصعة : « إلى قصعتها.. الضمير لأَكَلة.. أي التي يتناولون منها بلا مانع ولا منازع؛ فيأكلونها عفواً وصفواً.. كذلك يأخذون ما في أيديكم بلا تعب ينالهم، أو ضرر يلحقهم، أو بأس يمنعهم.. قاله القاري.. قال في المجمع: أي يقرب أنَّ فِرَق الكفر وأمم الضلالة أن تداعى عليكم.. أي يدعو بعضهم بعضاً إلى الاجتماع لقتالكم.. وكسر شوكتكم؛ ليغلبوا على ما ملكتموه من الديار، كما أن الفئة الآكلة يتداعى بعضهم بعضاً إلى قصعتهم التي يتناولونها من غير مانع، فيأكلونها صفواً من غير تعب »[٦٨] انتهى.

والأكلة ضُبطت بفتحتين والهمزة غير ممدودة جمع آكل، وضُبطت بفتحتين والهمزة ممدودة على وزن فاعلة جمع آكل أيضاً .. قال القاري في المرقاة : الآكلة بالمد وهي الرواية على نعت الفئة والجماعة أو نحو ذلك .. كذا رُوي لنا عن كتاب أبي داود، وهذا الحديث من أفراده .. ذكره الطِّيبي رحمه الله.. ولو روى الأكلة بفتحتين على أنه جمع آكل اسم فاعل لكان له وجه وجيه.. انتهى .

(٦٦) سلسلة الأحاديث الصحيحة ٢/ ٥٥٩ رقم ٩٥٨ .

(٦٧) عون المعبود ١١/ ٢٧٢ .

(٦٨) عون المعبود ١١/ ٢٧٢ .

قلت : قد رُوي بفتحتين أيضاً كما عرفتَ، والمعنى كما يدعو أكلة الطعام بعضهم بعضاً »[٦٩] .

قال أبوعبدالرحمن : والرسول ﷺ يتكلم بلسان عربي مبين، والقوم هم أهل العربية، ومع هذا سألوا عن الوهن.. وقد ذكر الآبادي توجيه ذلك : فقال : « الوهن أي الضعف، كأنه أراد بالوهن ما يوجبه؛ ولذلك فسره بحب الدنيا وكراهية الموت.. قاله القاري .. وما الوهن ؟.. أي ما موجبه وما سببه.. قال الطِّيبي رحمه الله : سؤال عن نوع الوهن، أو كأنه أراد من أي وجه يكون ذلك الوهن .. قال : حب الدنيا وكراهيــة الموت .. وهما متلازمـان ، فكأنهما شيء واحد يدعوهم إلى إعطاء الدنـيَّة في الدين من العدو المبين، ونسأل الله العافية »[٧٠] .

قال أبوعبدالرحمن : ههنا وقفات :

الوقفة الأولى : ليس كل خبر صحيح لذاته متصل سنده برجال كالنجوم عدالة وإمامة يكون أصح من الحديث الصحيح لغيره إذا تعدَّدت طرقه؛ لأن الصحيح لغيره يرقى إلى هذه الرتبة بإسناد ليس فيه كذاب؛ فإذا تعددت الطرق ارتفع الشك نهائياً عن احتمال الخطإ والنسيان، وازداد اليقين بثبوته.. وحديث التداعي ثابت عن أبي هريرة رَضِيَ اللهُ عَنْهُ بإسناد صحيح .

والوقفة الثانية : صح بالوقفة السابقة أن خبر إسماعيل بن أبي خالد مرفوع في الواقع؛ لأنه ثبت بإسناد صحيح آخر رفعه ؛ فصح أن إسماعيل

(٦٩) عون المعبود ١١/ ٢٧٢ .

(٧٠) عون المعبود ١١/ ٢٧٣ .

يرفعه تارة، ويستشهد به تارة دون رفعٍ اتكالاً على فهم السامع أن معناه لا يكون إلا عن وحي .

والوقفة الثالثة : حديث ثوبان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ من طريق ابن رستم زالت جهالة عينه برواية ثقتين عنه.. وحاله على أصل العدالة، ولقد بان صدقه في هذا الحديث بالطرق الأخرى .

والوقفة الرابعة : بقية طرق حديث ثوبان صحيحة .

والوقفة الخامسة : رواية الأكلة بالهمزة مفتوحة غير ممدودة هي الأصح الأوضح بالترجيح اللغوي .

والوقفة السادسة : الوهن أنواع، وهو معروف عند العرب بأنواعه؛ فكان سؤالهم من أجل تحديد النوعية .

والوقفة السابعة : اختلاف ألفاظ الحديث ههنا غير مؤثـّر في المعنى، وما كان منها زائداً فسببه تعدُّد السائلين، وتعدد الأجوبة.. وقد ألَّف الدكتور شرف محمود القضاة رسالةً صغيرة موجزة عن أسباب اختلاف ألفاظ الحديث الواحد تصلح أن تكون مشروع بحث موسع، وهي بعنوان «أسباب تعدد الروايات في الحديث النبوي الشريف» .

قال **أبوعبدالرحمن** : من أول خلافة إسلامية حقيقية تمثلت في حكومة رسول الله ﷺ إلى سقوط آخر خلافة إسلامية تمثلت في السلطنة العثمانية: وُجِدَت تعدُّديةُ الفرق والمذاهب ـ باستثناء الجماعة الناجية .. جماعةِ السنة والاقتداء بالسلف ـ تعدديةً تتصف بالشغب والشذوذ؛ لأن الدار إسلامية، والدستور إسلامي، والدول إسلامية.. ومن ثم لم يحتج السواد

الأعظم إلى تسمياتٍ تُميِّزهم عن شذوذ الفرق مثل الحركات الإسلامية، أو الأصولية، أو الإسلاميين.. إلى آخر قاموس ما يُسمَّى اليوم الإسلام السياسي[٧١] .. ولم يتحزبوا تحت شعار مصطلحات وتسميات كالإخوانيين وجماعة التبليغ، وجماعة التحرير، وحركة العدل والإحسان[٧٢] .. إلخ ..

---

(٧١) وفي هذا ألَّف الكاتب المغربي إبراهيم أعراب كتابه الإسلام السياسي والحداثة، وتجد استعراضاً له في جريدة الشرق الأوسط العدد ٧٩١٤ في ١٩/ ٧/ ٢٠٠٠م ص١٨ .

(٧٢) قامت في المغرب بزعامة الشيخ عبدالسلام ياسين الذي خرج من السجن بعد تولّي الملك محمد السادس، وهي البديل من حركة الشبيبة الإسلامية بزعامة عبدالكريم مطيع، وقد حُلَّت بعد إدانتها باغتيال اليساري ابن جلون .. قال **أبوعبدالرحمن** : ورأيت ياسر الزعاترة من الأردن على وَجَلٍ من اعتزال هذه الحركة وضعف فاعليتها، أو قيامها بعمل يلغيها؛ لهذا وجَّه لها هذا الاقتراح المنشور بجريدة الحياة العدد ١٣٥٣١ في ٢٣/ ١٢/ ١٤٢٠هـ ص٩ : « المسار الأفضل للساحة المغربية بكل أطيافها هو أن يدخل الشيخ ياسين وجماعته إلى اللعبة السياسية بخطاب قوي يسمح لهم بتكوين معارضة حقيقية قادرة على المساهمة في لجم الفساد أو تحجيمه، وتشكيل قوة دفع توفِّر أجواءً أفضل؛ لصياغة حالة سياسية متوازنة بين السلطة والمعارضة ، وتساعد على حمل المغرب إلى آفاق ديموقراطية حقيقية تُسعفه في مواجهة استحقاقات المستقبل من حرية تنمية وعدالة.. ليس من السهل القول: إن هذا الاحتمال هو المرجح.. فعقلية السلطة في العالم الثالث لا تستوعب المعارضة القوية .. كما أن منهج الكثير من الإسلاميين لا يقبل بموقف يزهد في السلطة، ويميل إلى أداء دور الشاهد عليها والمراقب لأدائها والباحث عن مزيد من المكاسب للشارع الشعبي أكثر من المكاسب الحزبية الضيقة .. ومع ذلك يبقى الأمل في أن يعمل الإسلاميون في المغرب على صياغة نموذجهم الخاص الذي لا يكرر أخطاء الآخرين ويقبل بدور « أولو البقية » الذين « ينهون عن الفساد في الأرض » كما تحدث القرآن الكريم دون أن يسعوا إلى مكاسب السلطة، وهو الدور ذاته الذي لعبه العلماءُ خلال قرون عدة (الزهد في السلطة، والرقابة عليها

وأما مصطلح السلف، وأهل الحديث، وأهل السنة والجماعة فلم يكن في نطاقِ غمار عامَّة وزعامة قياداتٍ سبيلها الثورة ، وغايتها الحكم.. وإنما كان في نطاق العلماء والمؤلفين بدافع تبصير العامة بصحة الانتماء بعد تعدُّد الفرق البدعية، ولم يستعيروا مصطلحهم، بل أخذوه من ضرورة التوافق بين مضمون التسمية الشرعية وواقعهم؛ فقد ميَّز رسول الله ﷺ الفرقة الناجية بمن كان على مثل ما هو عليه وأصحابه رضوان الله عليهم، وأنهم ظاهرون لا يضرهم من خذلهم، وتجلَّى ظهورهم في القرون الأولى الممدوحة التي حكم لها رسول الله ﷺ بالخيرية؛ فكانت أخصب ظرف زمني لهؤلاء الفضلاء الذين كانوا سلفاً، وكانوا سلفاً صالحاً.. وما وُجد من وشب في السلوك خلال القرون الممدوحة فإنهم يردُّونه إلى صحيح الحكم الشرعي وصريحه، وإلى سيرة من ليس في سيرته وشب.. وتلك الفرق معلَّل اختلافها وشذوذها على مُستوى الآحاد بخطإٍ في الاجتهاد سببه حرية الفكر وجسارة السلوك على ما رسمه الشرع منهجاً للتفقه فيه، وبهوى وعصبية وحمية، وبرغبة في السيطرة السياسية والشهرة العلمية، وبتضليل أمم مغلوبة من قوى تكيد في الخفاء، وبتضليل من مِلَلٍ أخبر الله بأنها تود لو نكفر .

وعلى صعيد العلم والمعرفة لا السياسة قَبِل السلفُ الانقسامَ إلى مذاهب فقهية حنفية ومالكية وشافعية وحنبلية وظاهرية وأوزاعية وسفيانية وليثية وجريرية.. إلخ.. وكان أئمة أهل هذه المذاهب ذوي ورع وعبودية لله

من الخارج، والالتحام بهموم الناس وقضاياهم، والاستعداد لدفع التضحيات المترتبة على ذلك، في مسار يجعل إقصاءهم أو تحجيمهم صعباً » .

بالخضوع لشرعه.. وشذوذ أي مذهب (المفردات) مرجوع به إلى البرهان الشرعي، وما لا يُعلم فيه خلاف، والترجيح من مذاهب العلماء الفحول خارج دائرة المذهب .

وكل دولة قامت حينئذ ـ مهما كان من تقصيرٍ وتجاوز في قياداتها ـ توصف بالعصيان غير المخرج من الملة، ولا تُوصف بالاستحلال لما حرم الله؛ لأن الدين لم ينفصل عن الدولة والحياة العامة بفرض قانونٍ غير شرع الله.. وكان القائم على إبلاغ الأحكام الشرعية والحكم في الوقائع علماءَ المذاهب الفقهية المتبوعة من حنفية ومالكية .. وهم في اختلافهم مأذون لهم شرعاً بمنطق مشروعية الاجتهاد فيما يسع فيه الاختلاف، ومنطق أن إصابة المختلفين محال، بل هو الأجر والمعذرة ؛ فكان كل مجتهد مصيباً، وليس كل اجتهاد صواباً.. وكان للمصيب والإصابة أجران، وكان للمصيب والمخطئ أجر ومعذرة.. إلا أن هؤلاء المختلفين في المسائل الفقهية مجمعون على التزام ما لا يسع فيه الاختلاف، ومن كانت له في هذا الباب هفوة : أزالوا شبهته، وردوا مذهبه بلا مواربة، والتمسوا له العذر يقيناً بنزاهة القصد.. ولما كان هؤلاء هم القائمين على إبلاغ الحكم الشرعي وتطبيقه كان الدين واحداً فيما لا يسع فيه الاختلاف فَتوى وقضاءً ودعوةً وحسبة وتعلُّماً وتعليماً، وكان السواد الأعظم تبعاً لهم طوال القرون الممدوحة.. إلا أن أتباع أئمة السلف من الفقهاء التمسوا لهم أئمة في العقائد غيرهم حدثوا بعدهم.. وباستثناء فرقتين إحداهما بعدت عن الحظيرة بعداً جعلها تأتي بدين جديد، وكلتاهما عملت على الهيمنة السياسية أو الاستقلال السياسي: فإن هذه

التعددية لم تؤثّر في وحدة الجماعة فيما هو شرط لكيانها وعبوديتها لربها؛ فكان القضاء (من مذهب واحد، أو من مذاهب جُمِع علماؤها للمشورة) يَلْتَمِسُ بنزاهةٍ حكمَ الله في مسيرة الجماعة بمفهوم الإسلام، ويترك مسائل الإيمان للجدل العلمي بين العلماء.. والسُّنيُّ مثلاً والأشعري والمرجئ يدٌ واحدة في الجهاد والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.. ولما قعد المسلمون عن الجهاد، وكان عملهم العسكري دفاعاً عما بحوزتهم ـ على مدى البعد عن القرون الممدوحة ـ : كان واقع سوادهم في الجملة تمزُّقاً وذهابَ ريح.. يجتمعون على استحياءٍ لخدمة عمل مشترك يهم المسلمين، ويفترقون بوضوح وشجاعة على التحزب لمذاهب بدعية.. ولسوء الحظ كان شعار الإخوانيين مستلاًّ من هذا الظرف التاريخي الضعيف؛ إذ كان منطقُهم الاجتماعَ على ما اتفقنا عليه، ولا نُلام على ما اختلفنا عليه، أو يعذر بعضنا بعضاً فيما اختلفنا فيه.. أي وحدة الصف على المشترك من الهدف.

قال أبوعبدالرحمن: ولست بسبيل نقد هذا الشعار أو تقريظه، وإنما غرضي تبيان جذره التاريخي من حال ضعف الأمة وتمزقها .

والملاحظ في تلك التعددية ـ عن صدق تارة، وعن تضليل تارة ـ أنها لا تنطق بدعوة علنية تُحاجُّ على اختيار الإسلام أو اختيار غيره، بل كلهم يدَّعي الإسلام، ويدَّعي أن ما هو عليه هو الإسلام باجتهاده؛ ولهذا سُمُّوا جميعاً أهل القبلة .

أما في عصر ما بعد سقوط الخلافة الإسلامية ـ بالتدرج الرديء إلى هذا اليوم ـ فلم تكن التعدُّديةُ تعدديةَ اختلاف في مفهوم الخطاب الشرعي، وإنما

هي تعددية تجعل الإسلام قسيماً لا جهة أقسام.. وبمعنى أوضح فهي تعددية مِلَيَّة لا نحلية !.

إن الذين يتحدثون اليوم عن جدلية الإسلام السياسي يتحدثون عن أمرٍ مصطلح عليه واحـــدٍ تعددت أسماؤه الاصطلاحية كما أسلفــت عن الأصوليين والحركيين.. إلخ، ولا يجعلون المصطلح عليه الوحيد (وهو الإسلام) معياراً لتصحيح مسار المختلفين في دائرته تحت عدة أسماء اصطلاحية كثيرة ، بل يجعلون الإسلام بكل قُوَى أهله الممزقة بالمصطلحات قسماً من أقسام كثيرة.. والجامع لهذه الأقسام أنها موضوع لنظرنا في اختيار السلوك الذي نريده، والدينونة التي نعتقدها.. إنها مساومة على الإسلام في بلاد الإسلام وأهله؛ لأنهم يطرحون للخيار مذاهب المسلمين - سنيهم وبدعيهم - مع مقولات أخرى كالديموقراطية، والمشاركة السياسية، والحداثة، والتعددية (بما في ذلك تعددية غير المسلمين في ناشئةٍ آباؤهم مسلمون)، والعلمانية، وحقوق الإنسان، والمسألة النسائية، والـهُوِية، والتعدد اللغوي والثقافي.. وكل ذلك مما طرحه الكاتب المغربي إبراهيم أعراب وغيره .

قال أبوعبدالرحمن : وأكثر المثقفــين في مشرقنا ومغربنا يفرحون بالطرح الجديد ويستسلمون له ؛ لأنني - على دقة متابعتي - لم أرَ واحداً قرأ مثل هذا الطرح فتجاوب معه بروح نقدية تُجيد حرية المحاكمة الفكرية لا حرية الاستسلام السلوكي.. والمغالطات في هذا الطرح ليست بعيدة عن أدنى الناس لَمَاحِيَّة إذا تخلصنا من عقدة لذة التجديد!! .. إن المطروح ههنا ليس من البدائل التي يُغني أحدها عن الآخر بعد النظر.. إنها ليست كلها أحكاماً

أو مصادر أحكام يكون سلوكنا واعتقادنا موضوعاً لها.. بل منها ما هو موضوع للأحكام ومصادر الأحكام كحقوق الإنسان، والمسألة النسائية.. ومنها ما هو أحكام ومصادر أحكام كالإسلام والديموقراطية.. إن الإسلام حكم الله لخلق الله، والديموقراطية حكم غير الله في خلق الله (حكم الشعب للشعب).. والمسألة النسائية موضوع نملك بحريتنا السلوكية أن نأخذ حكمها من الإسلام أو الديموقراطية أو المجوسية .

وحكم الشعب لنفسه بناخبين عنه وتصويت يكون موضوعاً للحكم الشرعي؛ فيرفضه فيما جعله الله من حقه وألغى فيه الحرية البشرية بالعبودية الشرعية كضرورة تطبيق حدود الله، وأنه ليس للبشر حق إسقاطها.. ويقبله قبول إيجاب فيما فوّضه الله إلى اختيارنا واجتهادنا من شؤون دنيانا، وكان مصدر المعرفة فيه التجربة التاريخية، والخبرة العلمية طـبّْاً[٧٣] وهندسة وزراعة.. إلخ .. ومع هذا يكون التوظيف في إطار مقاصد الشريعة المطهرة.

وهذا الطـرح ينطوي في مغالطـته على خبث ؛ إذ جعـل الحكم - كالإسلام - قسيم موضوع الحكم كالمسألة النسائية والتعدد الثقافي؛ لاختلاس ذهنية المتلقي واستمالة سلوكه وتصوره؛ فيشعر بأن اختيار الإسلام يعني فقدان مباحات وواجبات الديموقراطية، وفقدان الحل للمسألة النسائية والتعدد اللغوي والتسامح والمشاركة والاعتدال والقبول بالتسوية والحق في الاختلاف والتعدد في الرأي والفكر والسياسة !! .

---

(٧٣) المنهج الصحيح ههنا وضع الشدة والسكون على الباء ، والتنوين على الألف ؛ لأنها الباء الثانية المفصولة .

إن بلاد العرب والمسلمين بلاد الغالبية العظمى لأهل الإسلام قبل أن تُغلب عسكرياً ، ولا تزال كذلك بسوادها الممزق الآن ؛ فلا يجوز ـ بادعائهم الديموقراطية ـ إيذاءُ الأكثرية في دينها.. وأهل الإسلام في بلادهم يعلمون أن في الإسلام البتَّ في موضوعات مثل التسامح والمشاركة.. إلخ .. ولكن بضرورة البرهان الذي هو هبة من دين الله وقضائه الكوني بخلقه العقل السوي، وأن مصدر ذلك الكمال المطلق لعلم الله وحكمته.. إلخ .. وليس بميوعة الشهوات والشبهات .

ومصطلح الإسلام السياسي أظهر ظاهرة لغربة الرقعة العربية والإسلامية، وغربة المسلم في بلاده ؛ لأن هذا المصطلح يعني المطالبة بحكم إسلامي للمسلمين في بلادهم ؛ فأصبح مستغرباً لدى العلمانيين.. ووجه الاستغراب أنه مطالبة بما ليس على أرض الواقع ـ مع قصر المدة بيننا وبين آخر حكومة إسلامية شاملة ـ ، ولأن الناشئة أَلِفت الوجود الراهن لمفهوم الإسلام (وهو أن يكون الفرد حرّاً في التزام الإسلام، ولكن ليس له أن يفرضه بالمطالبة بمؤسسة حِسْبَة أو هيئة أمر بالمعروف والنهي عن المنكر) .. وهكذا أصبح الواقع التاريخي العريق لأمتنا خلال ثلاثة عشر قرناً أمراً مستغرباً في حقبة الضياع هذه .

وتلك الأزمة لا تعانيها أكبر رقعة في جزيرة العرب ـ وهي المملكة العربية السعودية ـ ؛ لأن الإسلام لم ينفصل عن واقع الدولة منذ قامت، ولا عن واقع الحياة في مجتمع مسلم عَلَنُهُ معصوم، وذلك من واقع خصوصياتها التي ذكرتها في كتاب « عبدالعزيز ووحدة الأمة والرقعة والدولة والقائد » ..

ومن أبرز ما أنتجته هذه الخصوصية : أنه لا يجتمع فيها دينان، ولا تُمنح فيها الجنسية لكافر، ولا يُنكَّس عَلَمُها لأي خَطْبٍ ولو كان جَلَلاً، بل صفة عَلَمها ذاته خِصِّيصة، ووجود مؤسسة للأمر بالمعروف والنهي عن المنكر خِصِّيصة.. والمطالبة بالحكومة الإسلامية قد يُحصى لها أكثر من سبب كالتخلف الثقافي ، والضعف العلمي ، والكساد الاقتصادي ، والتفكك الاجتماعي ، والحصار السياسي، وأطماع الدول الكبرى .. والسببان الأخيران يبرزان في ظاهرة إنتاج القيادات المحلية التي تصل إلى الحكم الموجَّه ولا تاريخ لها قبل ذلك، وفي التحكم في إرادة الأمة قيادة وشعباً باسم الديموقراطية وحقوق الإنسان، وفي التآمر على مواردها وبعض رقعتها كفلسطين.. كل هذه أسباب واقعية ، وقد يحصي الاستقصاء أكثر منها .. إلا أنها أسباب لهذا التضافر الحركي السريع في المطالبة بحكم إسلامي، وليست هي السبب في رسوخ الإيمان بمشروعية هذه المطالبة؛ لأنها مطالبة بحق تاريخي مغتصب، ولأن الأمة في ظل ذلك الحق التاريخي لم تحمل أقل قليل من معاناة الأمة في غياب الحكم الإسلامي.. والتعليل المطلوب إنما هو لسرعة التعدد الحركي، وتكثيفه، ومراهنته على المخاطر.. وتعليل ذلك فيما يظهر لي بأمرين :

أولهما : رسوخ العقيدة بأن تقدم الأمة العلمي في الاختراع والاكتشاف الكوني لن يكون شرطاً يتوقف على وجوده وجودُ العمل الحركي ما دام أن الفاصل الزمني بيننا وبين علم الغرب قرنان، وهم في سباق مع الزمن لتحقيق المزيد من الاختراع والكشف ونحن نتحرك ببطء، ومجهودنا غير

معتبر، ومحجور علينا أيُّ علم تتحقق به القوة؛ فرأوا التحرك بمجهوداتهم الضعيفة وعلى الله إتمام المسيرة، ولهذا عُنيت الحركة الإسلامية في أفغانستان ضد الشيوعية بنشر المعجزات وخوارق العادات .

وثانيهما : الحركة الخمينية عام ١٩٧٩م؛ فقد ألغوا فوارق النحلة، ورأوها انتصاراً إسلامياً على الدول الكبرى.. ولا ريب أن قَدَرَ المسلمين اليوم يبدأ بالدعوة التربوية، وبالحجة والبرهان والإقناع.. مبشرين غير منفرين، وميسرين غير معسرين.. مع الصبر وطول النَّفَس، وامتلاك وسائل البلاغ والإعلام، وملاحظة قاعدة شرعية.. وهي أن الله لم يبح قط وسيلة كانت محرمة من أجل غاية شريفة، بل الوسيلة والغاية معاً شريفتان في ديننا، كما أن السلفية شرط حضورنا الإسلامي .

ولقد رأيتُ إبراهيم أعراب يخبط خبطاً عشوائياً في تصنيف الحركات والدعوات المنتسبة إلى الإسلام ؛ فجماعة العروة الوثقى حركة سلفية!! .. إنها حركة (كلُّ[٧٤] الطرق توصل إلى روما) !! .. وإنما السلفية دعوةً وحضوراً دعوةُ الشيخ محمد بن عبدالوهاب في بلادٍ هي مهوى أفئدة المسلمين، وربما تخلَّص الشيخ محمد عبده رحمه الله من براثن الرجل المريب جمال الدين الأفغاني؛ فعمل في جانب الإصلاح والدعوة بفكر معتزلي، ثم تلاه تلميذه محمد رشيد رضا فنحا رويداً رويداً إلى السلفية بفضل الله ثم بفضل اتصاله بالملك عبدالعزيز وعلماء البلد رحمهم الله جميعاً .

---

(٧٤) الرفع على الحكاية ، لا على إضافة (حركة) ؛ إذ هي إضافة إلى جملة .

ولستُ أرى لمدرسة جمال الدين الأفغاني ومحمد عبده أي أثر في حركة الإخوان المسلمين كما يزعم أعراب، بل كانت انطلاقتهم - أي الإخوانيين - ذاتية من واقع التمزُّق بين تاريخهم وراهنهم، وجملة قادتهم علماء أو من أسر علمية ، ولم يُنقُّوا صفوفهم من أوشاب الصوفية والقبورية والفرق البدعية، وأعلنت كتبهم أن الغاية الحكم قبل أن يملكوا استجابة المجتمعات ؛ لتكون أداة نصر تفوق أو تُكَافِئ قُوى الرهان العالمي على صدِّ المسلمين عن تحكيم دينهم بفلذات أكبادهم .

والواقع أن كل حركة إسلامية - باستثناء الخمينية - تنتمي إلى الإخوان؛ فمنهم من يأخذ بفكرها في البدايات عندما كان الغرض الدعوة في الأرياف والمدارس ليكون مسؤولو المستقبل ذوي تربية إسلامية.. ومنهم من أخذ بمبدإ الغاية تُسوِّغ الوسيلة بقبول العمل السلمي في دائرة الأحزاب أسوة بانضواء الإخوان تحت مظلة الوفد، ومنهم من آثر العمل العسكري أسوة باستعدادهم العسكري الذي واجهه عبدالناصر قبل نضجه.. وخرجت عنهم نوابت لا يُستبعد أنه دخل فيها وتسمَّى بها عناصر إفساد علمانية، فاستسهلوا التكفير إجمالاً وتعييناً، وجعلوا الاغتيال مشروعاً، وقتل النفس البريئة مباحاً(٧٥) .. وإن حصل من ذلك كثير فإن ما ارتُكِب باسمهم افتراءً

(٧٥) أسوأ هذه الجماعات جماعة التكفير والهجرة، ومؤسسها شكري مصطفى عام ١٩٧٨م، وقد أُعدِم بمصر عام ١٩٨٧م بعد اختطافه وقتله للشيخ حسين الذهبي وزير الأوقاف.. وينتسب إلى الإسلام جماعات لا تنتمي إليه في الواقع مثل جماعة الجهاد، فقد نشرت عنهم الصحافة أخباراً لا تليق بمسلم.. إلا أن محامي الجماعات الإسلامية بمصر تنصَّل منهم.. جاء في مجلة الوسط العدد ٤٢٧ في ٢/ ٤/ ٢٠٠٠ ص١٨ : « إن زعيمي التنظيم

عليهم من قُوى الشر أكثر.. ونبتت نابتة أخرى آثرت التدروش، واستصلاح الأفراد مع ولوغٍ في البدعة كجماعة التبليغ.. أما تربية الفرق الصوفية فقد كانت أقدم من هَمِّ الحركات الإسلامية، بل بلغت الذروة منذ سقوط الحكومات العربية والإسلامية وقيام سلطنة الأعاجم.

ونقل عن راشد الغنوشي، وحسن حنفي ومحمد عمارة التسوية بين الإسلام والديموقراطية.. أما الأخيران فلا ريب في النَّفَس المعتزلي في أعمالهما، ولا يضير الصف الإسلامي أن يفيد منهما كما أفاد من جار الله

منصور محمد رمضان والسيد أبوالنجا الصفطاوي دعوا أتباعهما إلى الخروج على الحاكم باعتباره كافراً والمجتمع باعتباره جاهلياً، وحرَّما عليهم التعامل مع أجهزة الدولة أو التعلم في المدارس أو العمل في الوظائف الحكومية.. ضمت لائحة الاتهام في القضية أربع سيدات بينهن ثلاث شقيقات (عبير، وأسماء، وشيماء شعبان زيدان) وتبيَّن أن الصفطاوي تزوجهنَّ دفعةً واحدة بعدما أفتى بجواز الزواج منهن.. بل إنه أنجب منهن!!.. ولا تختلف الأفكار التي تبناها أعضاء وعضوات ذلك التنظيم عن أفكار المتهمين في القضية الثانية الذين تقودهم السيدة منال مانع أحمد التي خصصت لأربع سيدات أخريات مواقع قيادية في الجماعة التي أطلقت عليها اسم « الطريقة اليومية العمدية »، ولكن منال زادت بإسقاط فريضة الحج والصلاة عن بعض عناصر التنظيم!.. وسألت « الوسط » محامي « الجماعات الإسلامية » في مصر السيد منتصر الزيات عن أسباب عودة التنظيمات التكفيرية إلى الساحة، ومغزى تحول السيدات إلى موقع القيادة فيها؟.. فرفض إطلاق صفة جماعة دينية أو إسلامية أو أصولية على أي من التنظيمين الأخيرين، واعتبر أن التهم الحقيقية التي يواجهها المتهمون تتعلق بالشعوذة والخروج عن الدين الإسلامي وليس التطرف أو استغلال الإسلام، واستغرب محاولة إلصاق صفة « الأصولية » على التنظيمين .

الزمخشري رحمه الله وعشرات غيره .. وقد نص شيخ الإسلام ابن تيمية في مواضع كثيرة ـ ولا سيما الجزء الخامس من منهاج السنة ، ونص كثير غيره من الجهابذة المدققين ـ على أن أهل القبلة لا يكفَّرون بمقالة بدعية عن اجتهاد نزيه، وحكمهم إلى الله العليم بالصدق وبالحمية الجاهلية.. ولكن بيان الحق، وتعرية البدعة واجب لبراءة ذمة الداعي وإقامة الحجة على المدعو.. ولحسن حنفي خصوصية علمانية أشرتُ إليها في كتابي عن الحق الطبيعي وقانونه في مناقشة ألاعيب الفرخ اليهودي سبينوزا، وتصنيف حسن حنفي في دائرة الحركات الإسلامية لغو .

قال **أبوعبدالرحمن** : ولا غضاضة على التيار الحركي الذي سماه أعراب بالبديل الحضاري المتمسك بمبدإ الدعوة بياناً ومحاورة ولا الاعتراف بأن الاختلاف قدر كوني؛ فهذا هو المنهج الذي يفرح به كل مسلم في هذا الظرف الذي بلغ فيه المسلمون غاية الضعف ، وبلغ الأعداء فيه غاية القوة، وهو منهج رسول الله ﷺ قبل أن يوفق الله له أسباب الجهاد والصدع بما يُؤمر.. وهو منهج العلماء الربانيين حال فساد المجتمعات وتجاوز الحكومات.. خذ نموذج ذلك صدع الإمام أحمد بن حنبل رحمه الله بالحق ولم يأمر بالخروج على الدولة الاعتزالية الجائرة.. وخذ مثالاً على ذلك شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله كثر في عصره الشر ، وجاهد جهاداً علمياً قوياً بفداءٍ وتضحية ، ولم يجاهد بسيفه ، ولم يدع إلى ذلك إلا أمام عدوٍّ خارجي مباغِت، ولم يدع قط إلى القيام على الدولة .

ومن اللغو المنزوع البركة أن يعتدَّ أعراب بما أسماه باليسار الإسلامي

سواء أكان رمزه حسن حنفي، أم محمد أركون، أم محمد عابد الجابري، أم علي أومليل.. بل عطاء هؤلاء موضوع للجهاد العلمي الذي نباركه في جهاد من سمَّاهم بالبديل الحضاري.. هذا هو الجهاد المقدور عليه الآن على مستوى العلماء.. والقادةُ أكثر تبصراً بقدرهم العسكري والسياسي والاقتصادي.. إن هذه الحركات ـ حسنها وسيئَها ـ إفراز طبيعي من أمة سُرق منها دينها، واغتيلت قواها، وسُلبت مواردها.. وهي ليست أمة كالأمم، بل اختارها الله للقيادة، وجعل لها الوسطية للشهادة على الناس.. وهذا الإفراز لن يتوقف، ولكن سيتنوع إلى أن يبلغ مرحلة الرشد والوئام والهداية السلفية .

أما التسوية بين الإسلام والديموقراطية فلابد فيه من سؤال هو : أتعنون مُسَمَّىً جديداً تصطلحون عليه أنتم بالديموقراطية؟ .. فبيِّنُوه لنعلم وجهَ إسلاميَّتِهِ ؟! .. ومع هذا فليس هذا المسمَّى محل نزاع بينكم وبين دعاة الديموقراطية.. أم تريدون الديموقراطية بمصطلحها المدوَّن، وواقعها الراهن في دول الشرق والغرب؟.. وهذا ما ينبغي أن يكون هو الجواب ؛ لأن هذا الحضور الديموقراطي هو محلُّ الطرح ؛ فبيِّنوا لنا بارك الله فيكم وجه الإسلام في نظام يُسقِط حق الله في التشريع، ويجعل الإرادة المطلقة للشعب، ويبنى النظام على غرائز الشبهات والشهوات في الحق الطبيعي؟.

وهذه الديموقراطية بكل معانيها الرديئة هي شعار العولمة والعلمنة؛ فلابد من معادلة بين العولمة وخصوصيتنا الثقافية والدينية التي هي مقتضى العقل الإنساني المشترك.

والمعادلة مفاعلة من الفعل عادَلَ ، وتعني تتابع أفعال(٧٦) لإظهار تسوية تامة بين شيئين(٧٧) في الأحكام كالمنافع، أو الأوصاف أو المقادير .. إلخ، أو

---

(٧٦) بيَّنتُ كثيراً أن « المفاعلة » ليست أصلاً في تجاذب أفعال من طرفين كما يقول جمهور الصرفيين .. بل هي تتابع أفعال فحسب سواء أكانت من طرف واحد مثل سافر، أم من طرفين مثل ساير .

(٧٧) قال **أبوعبدالرحمن** : جرى أهل الرسم على كتابتها هكذا : « شيئين »؛ لأن الهمزة ـ عندهم ـ إذا كانت مفتوحة وقبلها حرف مـد أو لين ساكن فتكتب مفردة مثل السموءل، وجزاءين، وجزءين، وقراءات.. قال **أبوعبدالرحمن:** والصواب شيأين، والقاعدة : رسم ما ينطق ، ولا مسوغ لهذا الاستثناء ، وما ذكروه وصف حالة وليس برهاناً على استثناء حالة ؛ فالصواب حينئذ الرجوع إلى الأصل هكذا : السموأل، وجزاأين، وجزأين، وقراآت .

ثم استثنوا من هذه الحالة التي استثنوها؛ فقالوا : إذا وقعت الهمزة بعد ياء ساكنة فيرفع لها نبرة تُركز عليها حتى لا تُفصل حروف الكلمة بعضها من بعض مثل خطيئة ومشيئة وشيئين وشيئان.. وعللوا بكلمة «مسئول».. لو فصلت لكانت «مس ءول».. وهذا غير جائز .

قال **أبوعبدالرحمن** : حكم الهمزة المتطرفة انتهى بوجود حرفي الاتصال بعدها؛ فلا مراعاة له؛ فيكون الرسم هكذا مسأول.. وقد كافحتُ كثيراً ـ لما كنتُ موظفاً بوزارة الشؤون البلدية والقروية ـ أريد رسمها هكذا « الشؤون » بدلاً من الشئون، ولكنْ سِحْرَ القاعدة السلفية غلب الحجة والبرهان .

وكثير من قواعد رسم الهمزة في الوسط تحكُّمي لا مسوغ لخروجه عن قاعدة « ما ينطق يكتب إلا لمانع » .. والأصح عندي كتابة « الشيء » إذا وقعت همزتها بين الكلمة وحَرْفَي اتصال بعدها هكذا : الشيأين والشيآن؛ لأنه انتقل حكم كتابتها متطرفة في اختيار القوم ـ وعلى نبرة في اختياري .. والنبرة ياء ثانية ـ ؛ ولفساد فصل الحروف بحيث تكون الشيء ين، أو الشي آن؛ فرجعنا إلى القاعدة بكتابة الهمزة فوق ألف .

وأما دعوى أن الياء الساكنة في قوة الكسرة فليست بصحيحة في مثل رسمهم « هيئة »، وإنما هي صحيحة عندما تكون حرف مد مثل : بيئة، ومشيئة.. ولابد من توسيع قاعدة اجتماع ألف الهمزة وألف المد؛ فتكتب علامة المد فوق الألف بدلاً من الهمزة هكذا:

مفارقة تامة، أو تسوية جزئية بين عناصر الشيئين، وذلك على سبيل اليقين، أو الرجحان، أو الاحتمال المستوي الأطراف أو الطرفين.

والعولمة الراهنة كانت تلقائية في العالَمين العربي والإسلامي بمنطوق قوله ﷺ : « حتى لو دخلوا جحر ضبٍ لدخلتموه » !!.. إلا أن بروز العمل التنظيمي للعولمة ـ بالإغراء، والضغوط ، والإكراه ـ سيقضي على التلقائية البليدة البلهاء، وستعود الأمة إن شاء الله إلى خصوصيتها في التمسك بالجذور، والتغذي بالجديد البرهاني .. والعولمة بانتقائنا البرهاني لا تخيفنا؛ لأن مقتضى ديننا : أنَّ الحقَّ ضالَّةُ المؤمن .

والأخذ، والرد، والإعطاء ـ كل ذلك عن برهان ـ : فحولة في الفكر، ومتعة في الوجدان.. وكل ذلك هو الرجولة المعتدُّ بها في زحام العولَمة، وبيان ذلك : أن معايير الحكم الموجِّهة لسلوك العقلاء ثلاثة لا رابع لها ألبتة:

الأول : أن أنفي أو أثبت أواحتمل : وجود ذات، أو حال : بفطرة العقل، ومذخور التجربة، وشاهد المعاينة.. وأن أعرف مصادر الخطإ والصواب، والكمال والنقص، والعدل والجور.. إلخ .. إلخ .. وذلك هو معيار الحق.

والثاني : أن أعلم أن هذا السلوك نافعٌ أو ضارٌّ، ومُربِّحٌ أو مُخسِّرٌ، وراجحُ النفع أو مرجوحه.. وذلك هو معيار الأخلاق .

والثالث : أن أجد أن ذلك الإدراك الحسي سارٌّ مُبْهِجٌ، أو باردٌ فاترٌ، أو

(~)، ولا يُقصر ذلك على سبق ألف الهمزة لألف المد، بل يُعَمَّمُ ذلك في حالَتَي اجتماعهما مثل: الشآم، وجزآن.. ومع هذا جريت على الاصطلاح المعتاد تطبيقاً، وذكرت اجتهادي تأصيلاً في كتابي (رسم القلم ورموزه) .

سيئ يثير التقزز والغثيان والانقباض.. وذلك هو معيار الجمال.. وهذا المعيار مجرد علم بالوجود في الذات، ورصد لمواصفات الموضوع الذي صدر عنه وجدان جمالي .

والمعايير الثلاثة يصدر عنها ملذات نفسية (إدراك الحس الباطن) .. إلا أن الفيلسوف « بومجارتن » أغفل اللذة العقلية ـ التي تكون وجداناً قلبياً ـ عندما نحت كلمة « استطيقا » للدلالة على علم الجمال(٧٨) ؛ فكانت اصطلاحاً فلسفياً فنيا على علم الجمال أصبح فيما بعد يشمل أيضاً لذائذ الأخلاق(٧٩) .

قال **أبوعبدالرحمن** : وعلى أي تقدير فلذائذ الجمال والأخلاق ذات حكمين :

الأول : حكم إثباتي وصفي لما في الذات والموضوع .

والثاني : حكم تقويم يستند إلى قيمة الحق؛ وذلك بفحص الذات المدركة ــ بصيغة اسم الفاعل الرباعي ــ : هل هي سويَّة في المعادلة بين الغرائز والنوازع، وهل لنداء العقل سلطان عليها، وما مدى اقتباسها من المعارف والعلوم؟.. وبقدر التدني عقلاً وعلماً يكون الذوق متدنياً؛ فيكون الموضوع الذي طَبع له جمالاً ذاتياً: إحساساً بما كان في الواقع بارداً أو قبيحاً عند العقلاء والعلماء .

وكل دين صحيح الثبوت عن الخالق سبحانه فهو برهاني بقيمة الحق؛

---

(٧٨) انظر الموسوعة الفلسفية المختصرة ص٢٨٠ .

(٧٩) المصدر السابق ص٢٨١ .

إذن[٨٠] معيار الحق هو الحاكم في قيمَتَي الخير والجمال ، والعقل ـ بملكاته، ومذخوره ، وشاهده من المعاينة الحسية الراهنة ـ هو الذي يصنِّف الذوق الجمالي والخلقي تصنيفاً فئوياً حسب وضعية الجماعات عقلاً، وتديناً، وقوة فكر، وسعة علم.. وهو الذي يبتغي المثل الأعلى لكل إدراك حسي باطني (جمالي، أو خُلُقي) ؛ فيكون السمو ما أمكن إلى الكمال هو القائد لكل إستطيقا[٨١] .

قال **أبوعبدالرحمن** : ومما يُطرح للمعادلة جانب العولمة الثقافية ، وهي ـ أي عولمة الثقافة في الجانب المرفوض منها ـ تساوي « الثقافة المضادة »، ويأتي بيان هذا المصطلح إن شاء الله.. والثقافة مصطلح حديث لم تعرفه لغتنا، ولا تراثنا الاصطلاحي[٨٢] بالمعنى الاصطلاحي الراهن.. ولكنه صحيح المأخذ من لغتنا من مادة الثاء والقاف والفاء، ويتدنَّى بجلال الثقافة والمثقف من يظن أن الثقافة تعني العرف القديم لكلمة « أدب » الذي هو الأخذ من كل فن بطرف على نحو كتب المسامرات كالمستطرف !!.. والواقع أنها أسمى من ذلك؛ لأنه يلحظ فيها المعاني اللغوية من : الحذق، والمهارة، والجودة، والتهذيب، والتقويم، والتعليم، والتربية، والفطنة، والظفر والإدراك.. قال الراغب الأصفهاني عن بعض المعاني اللغوية : « الثَّقَفَ الحذق في إدراك الشيء وفعله، ومنه قيل : رجلٌ ثَقِفٍ.. أي حاذق في إدراك

---

(٨٠) تمنى أحد علماء اللغة العربية القدماء أن يكوي يد من يكتبها هكذا « إذاً » !! .

(٨١) إيراد اللفظ الأجنبي اقتراض، والتعريب بثلاث كلمات هي « الإدراك الحسي الباطني».. والاقتراض حينئذ أولى .

(٨٢) مثل التعريفات للجرجاني، والكليات لأبي البقاء الكفوي ، ودستور العلماء للأحمد نكري، وكشاف اصطلاح الفنون للتهانوي .

الشيء وفعله.. ومنه استعير المثاقفة [أي الملاعبة بالسلاح]، ورمح مثقف.. أي مقوَّم.. ويقال: ثقفتُ كذا.. إذا أدركته ببصرك ؛ لحذقٍ في النظر، ثم يُتجوَّزُ به؛ فيُستعمل في الإدراك وإن لم تكن معه ثقافة(٨٣) .. قال الله تعالى : ﴿وَٱقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ﴾ [سورة البقرة/ ١٩١]، وقال عز وجل : ﴿ فَإِمَّا تَثْقَفَنَّهُمْ فِى ٱلْحَرْبِ ﴾ [سورة الأنفال/ ٥٧]، وقال عز وجل : ﴿مَّلْعُونِينَ أَيْنَمَا ثُقِفُوٓاْ ﴾ [سورة الأحزاب / ٦١] »(٨٤) .

قال أبوعبدالرحمن : ثم تأملتُ الاصطلاح الحادث للثقافة؛ فوجدته يحددها ذاتاً ــ وهو ما ذكرته من حذق وفطنة .. إلخ ــ ، وينوِّعها حسب موضوعها .. وأعني بالموضوع ما يتعلق به تثقُّفُ الفردِ من المعارف والمهارات، ولقد أقرَّ مَجْمَع اللغة العربية بالقاهرة الثقافة بمعنى المعارف والعلوم والفنون التي يُطلب الحذق فيها(٨٥) .. وجاء أيضاً تعريف الثقافة على هذا النسق :

١- رياضة الـمَلَكَات البشرية بحيث تصبح أتم نشاطاً واستعداداً للإنجاز.

٢- ترقية العقل والأخلاق ، وتنمية الذوق السليم في الأدب والفنون الجميلة .

---

(٨٣) قال أبوعبدالرحمن : ليس هذا بصحيح، بل فيه إحكام قبضة، ولهذا ورد في سياق الآيات الكريمات القتل بدلاً من المقاتلة والتشريد والأخذ، وهذا لا يكون إلا عن إدراك وظفر وإحكام .

(٨٤) انظر مفردات ألفاظ القرآن ص١٧٣ .

(٨٥) انظر المعجم الوسيط ص٩٨ .

٣- إحدى مراحل التقدم في حضارة ما .

٤- السمات المميزة لإحدى مراحل التقدم في حضارة من الحضارات[٨٦] .

قال **أبوعبدالرحمن** : ويأتي التعريج إن شاء الله على الثقافتين (الأدبية، والعلمية) .

وقال «وبستر» في قاموسه : « الثقافة نموذج كلي لسلوك الإنسان ونتاجاته المتجسدَة في الكلمات والأفعال، وما تصنعه يداه، وقدراته على التعلم ونقل المعرفة إلى الأجيال التالية »[٨٧] .

قال **أبوعبدالرحمن** : وقبل التحقيق في مصطلح الثقافة أحب أن أستعرض ردود الفعل حول العولمة لكل ما سمي ثقافة؛ فمن تلك الردود ما نحا إليه بحث الأستاذ محمود طه شيحه ـ وما فيه من نقل عن الآخرين ـ من الفصل بين الثقافة والعلم والسياسة والاقتصاد .. وملخص ما عنده كالتالي :

١- أن العلم لا وطن له؛ فما يستحدثه من نظريات في أمة من الأمم لا يضير أن تُفيد منه بقية الأمم، ومن السهل أن تُقبل العولمة (الهيمنة) في العلوم والسياسة والاقتصاد .. أما الثقافة فلا ؛ لأنها مختلفة بين أمم التاريخ المشترك ؛ وعلى هذا فستكون شُقَّة الخلاف أوسع في مثل الثقافات العربية والأوربية؛ لأن تاريخهما غير مشترك.

٢- أن العولمة الراهنة (الهيمنة الأمريكية) اعتداءٌ على شخصية كل أمة

---

(٨٦) معجم المصطلحات العربية في اللغة والأدب لمجدي وهبة، وكامل المهندس ص١٢٩ .

(٨٧) مجلة الفيصل العدد ٢٦٩ ص١٦ .

وهويتها، وقد حركتْ روح التمرد والمقاومة من أمم مثل فرنسا والصين وسنغافورة وإيران، وصدرت قوانين حظر ومقاومة لتلك العولمة.. وهذا العدوان شرحه «دوشكوين» بقولـه: «إن الولايات المتحدة الأمريكية تهيمن على الحركة الكونية في مجالات المعلومات والأفكار؛ فالموسيقى والأفلام والبرامج التلفازية وبرامج الحاسوب (الكومبيوتر) الوافدة من الولايات المتحدة أصبحت شديدة الهيمنة والرواج؛ حتى إنها توجد اليوم في كل مكان على الأرض بالمعنى الحرفي للكلمة.. وهي تؤثّر بالفعل في أذواق كل الأمم وحياتها وتطلعاتها على الرغم من النظر إلى بعضها على أنه مفسدة »[٨٨] .

٣- أن الدول القومية تفقد نفوذها وتأثيرها في عالم السياسة .

٤- أن هذا الفقدان بصورة مباشرة أو غير مباشرة قوًى السوق الكونية.

٥- تأثيرات العولمة كونية الطابع غير محصورة في العالم المتقدم أو العالم النامي .

٦- أن العلم الاجتماعي التقليدي لا يمكنه تفسير هذه التغييرات.

وهذه الأربعة الأخيرة من كلام « دانيال ديزنر »[٨٩] .

٧- أن العولمة نفي للآخر، وليست أخذاً وعطاءً .. وهذا ما أبداه الدكتور محمد عابد الجابري؛ إذ رأى أن العولمة اختراق ثقافي يحل محل الصراع الأيديولوجي[٩٠] .

---

(٨٨) المصدر السابق .

(٨٩) مجلة الفيصل العدد ٢٦٩ ص١٨ .

(٩٠) المصدر السابق ص٢٠ .

٨- أن العولمة صيغةٌ جديدة للأمية التي عاشت ردحاً من الزمن باسم الماركسية .

٩- أن العولمة ليست نظاماً تثبت فيه العلاقات الوظيفية بين وحداته، ولكنه نظام قابل دائماً للتغيير؛ لأنه نظام دائم الحركة(٩١) .

قال **أبوعبدالرحمن**: الثقافة في معاجم اللغة الحديثة، وفي كتب المصطلحات الحديثة مطابقةٌ للمدلول اللغوي، متجاوزة له أيضاً؛ لأنها أُطلقَتْ على مصادر الثقافة، وذلك تجـوُّزٌ سائـغ وصفاً لا تسمية.. كما أن تلك المعاجم لا تفصل بين المعارف ومواد الحضارة الملموسة.

قال **أبوعبدالرحمن** : الجـاري ممارســة في مفهــوم الســواد الأعظم من المعاصرين: أن الثقافة هي حصيلة قراءة .. وهي قراءة غير مقيَّدة بحقل معرفي، بل هي قراءة حاذقة في عدة فنون؛ فينبغي أن يكون هذا هو المصطلح عليه في التدوين المعجمي؛ لأنه مطابق للفهم العام، ولأنه يحقق اصطلاحاً يخرج عن التطابق اللغوي.. وهذا هو غاية الاصطلاح على كل مستجد، وعلى كل ظاهرة لم يُقيِّدها اصطلاح.. كما أن الاصطلاح المذكور آنفاً يخرج مفهوم الثقافة عن مسميات قائمة كالأدوات الحضارية المادية.. إن الثقافة أَخذٌ من كل فن بطرف بغير المفهوم الاصطلاحي القديم لكلمة « أدب »، بل لهذا الأخذ ميزتان :

أولاهما : أنه أَخذٌ من كل فن بطرف عن حذقٍ وفطنة وروية .

---

(٩١) هذان الأمران الأخيران عن مجلة المعرفة السعودية العدد ٤٦ ص٤١ .

وأخراهما : أنه ليس الغرض منه المسامرة والتسلية وسطحيات الفنون.. بل هو ضرب في أعماق العلم والفكر والأدبيات .

قال **أبوعبدالرحمن** : والحذق الذي يعنيه مصطلح الثقافة له أيضاً جهتان :

أولاها : الحذق في الأخذ، وذلك بقراءة متأنية، وأخذ صائب .

وأخراهمـا : تكوين مَلَكَة حـاذقة قـادرة على الإبـداع، وخدمة المثقف لتخصصه أو تخصصاته، وذلك بالأخذ الحاذق من معارف أخرى؛ لأن الحقول العلمية يغذي بعضها بعضاً .

والثقافات تتفاوت جودةً وشمولاً، وأعلاها ما كان عن عدة تخصُّصات في عدة حقول مع حذقٍ متنوع لكل ما له علاقة بتخصصاته من الفنون الأخرى .

قال **أبوعبدالرحمن** : ليس ذا ثقافة فلسفية من كان يحفظ فهرسة مباحث الفلسفة، ويستحضر في ذهنه أسماء عدد من الفلاسفة والمؤلفات الفلسفية.. إنما المثقف فلسفياً من له حذق لبعض مسائلها وإن قلَّ نصيبه منها بعد علمه إجمالاً بأهم مباحثها، والمذاهب فيها .. ويكون حذقاً يفيده فلسفياً في دعم براهينه واعتراضاته، وتحرير دعاواه في مباحثه في الفقه واللغة والتاريخ والتفسير والحديث.. إلخ وأصولها وعلومها .

والعلم المادي حصيلة مبادئ نظرية، ويُستنبط منه مبادئ نظرية لتطلعٍ مستقبلي؛ لهذا يكون مصدرَ ثقافةٍ تتصف بأنها علمية تُضاف إلى الثقافة الأدبية؛ بحيث تكون الثقافة المجردة من الثقافة العلمية ثقافة قاصرة لا تليق بالعصر الحديث .. وقد ذكر الأستاذان مجدي وهبة وكامل المهندس: أن

الذي فجَّر الوعيَ بهذه الثنائية العالم الأديب سير تشارلس سنو عام ١٩٥٩م في محاضرة له في كمبردج أثارت نقاشاً حاداً ووجهات نظر مختلفة[٩٢] .

ويراد بالثقافة الأدبية كل الإنسانيات ذوقاً وتنظيماً وفهماً وحفظاً كالتاريخ وعلم الاجتماع وعلم السكان وعلم السياسة وأصول الحكم والاقتصاد والنظام والإدارة وعلم النفس والفنون الجميلة.. يُؤخذ من كل ذلك المدلول النظري الاستنباطي الذي يُمارَس بالقراءة والكتابة .

قال أبوعبدالرحمن: والعلم المادي تُسيِّره وتبرمجه قيادات وهيئات ومؤسسات لا سبيل إلى مخاطبتها والتأثير فيها إلا بفكر يملك الثقافتين معاً؛ ليكون مثلاً قادراً على كلمة مسموعة تُوجِّه السلوك بتوظيف مواد الحضارة في الحق والخير والجمال، ووأدِ ما لا قيمة له إلا الدمار والإباحية ومحادَّة الله في تدبيره الشرعي والكوني[٩٣] .. وإذا وصل الأمر إلى هذا الحد فسنة الله الكونية لا تتغير كما هي في كل حضارة كافرة سادت ثم بادت.. هذا هو الجانب الفكري العملي من الثقافة العلمية التي لا تستغني عن ثقافة أدبية تخاطب القلب ما دام « تقدم البشرية لا يُقاس باليسر المادي بقدر ما يُقاس بإتاحة المجال الذي يعاون المرء فيه أخاه، ويتعاطف معه؛ فيكون الإنسان اجتماعياً يتعاطف مع الآخرين »[٩٤] .

---

(٩٢) معجم المصطلحات العربية في اللغة والأدب ص١٣٠ .

(٩٣) كل جحد للعناية والقدرة الإلهية، وكل إفساد للفطرة في البشر والطبيعة : من محادة تدبير الله الكوني .

(٩٤) معجم المصطلحات العربية ص١٣٠ بتصرف واختصار غير مخلين .

قال **أبوعبدالرحمن** : ولم يُوفَّق قرار مجمع اللغة العربية في تسمية العلوم والمعارف والفنون ـ التي يُطلب الحذق فيها ـ ثقافةً !! .. والواقع أنها ليست بثقافة، ولكنها مصدر للثقافة.. ولاضرورة لهذه التسمية المجازية؛ لأنها خلط بين الشيء ومصدره لغير ضرورة ملجئة ؛ ولأنها تسمية تحكُّمية في تخصيص ما ذكر.. والواقع أن كل ما هو في الوجود من ملموس ومسموع ومقروء.. إلخ فهو مصدر للثقافة .

وأما رياضة الملَكَات فهي تثقيف لا ثقافة.. والتثقيف على معناه اللغوي العام إلا أن يكون بالقراءة؛ فيكون تثقيفاً بالمفهوم الاصطلاحي الأخص.. وتنمية العقل والأخلاق والذوق .. إلخ غايات ثقافية؛ فلا تُسمَّى ثقافة .

ولا يصلح قولـهم : «إحدى مراحل التقدم في حضارة ما» تعريفاً للثقافة، وإنما ذلك ظاهرة تاريخية؛ إذ يبدأ نشاط الأمة العقلي بما تفرزه العواطف من آداب؛ فيكون الاتصال بالعقل؛ فتكون الفلسفة والمنطق وعلم الكلام والإبداع الفني المرتكز على الخيال.. والخيال عطاء عقلي، ثم تكون الثقافة ـ العلمية والأدبية ـ .. الأولى تلي الحضارة المادية، والثانية تسبقها .

ولا يصلح أيضاً للتعريف قولـهم : « السمات المميزة لإحدى مراحل التقدم في حضارة من الحضارات »، وإنما ثقافة العصر تكشف عن السمات؛ ففرقٌ بين التعريف بالشيء والإشارة إلى آثاره.. وإنما يكون ذِكْرُ الأثر شارحاً للتعريف حال الضرورة .

قال **أبوعبدالرحمن** : ويكل ما مضى يبين عموم وضلال وميوعة تعريف وبستر في قاموسه .

وما دامت الثقافة حصيلة قراءة حرة واعية حاذقة ـ استناداً إلى المعنى

اللغوي ـ فلا حجر على المثقف (بهذا الشرط التلقائي) ؛ لأن المفكِّر يتلقى معارفه بحرية وانطلاقة فكــرية، ثم يلتزم مسـؤولية البرهان الذي يُوجِّه السلوك ويقوده.. ومن السلوك الثقافي الحر ثم الملتزم : أن يكون المفكِّر نبراساً هادياً لقاصري المدارك وأشباه العوام، وأن يكون ذا جَلَد في كشف كل حيل التضليل وإنقاذ ضحايا المغالطات .. وهكذا كان مثقفونا الكبار من أئمة الفقه والحديث والتفسير والعقليات منذ القرن الهجري الأول إلى أمثال ابن جرير فابن حزم فابن تيمية .. إلخ رحم الله جميعهم، وذلك عندما كانت العالمية صفة للثقافة اليونانية التي هي خليطٌ وثنياتٍ وأفكار وميتافيزيقيات وعلوم مادية وعقلية نافعة ومأثوراتٍ أديان صحيحة أو محرفة.. كل هذه تمركزت في جنديسابــور بإيران والرهــا ونصيبين وأنطاكيــة وقنسرين والأسكندرية وحران وأديرة العراق والشــام ومصر .. وكانت مصادرها مصرية وسريانية وفارسية التحم بها مثقفو المسلمين منذ القرن الثاني الهجري[٩٥] .. وكل حذقٍ ثقافةٌ بالمعنى اللغوي الأعم؛ فعالم اللغة ذو ثقافة لغوية، والإمام في الفقه ذو ثقافة فقهية.. ولكن المعنى الاصطلاحي يشترط تعدُّدَ الحذق في عدة حقول.. واحد منها أو بعض منها تخصصي كلي، وبعض منها حـذق جزئي ومعرفة إجمالية.. والثقافة عالمية بطبيعتها؛ لأن المثقف لا يبــدأ من فراغ، ولأن حتميات التاريخ تجعل العقول والمواهب والمهارات والأذواق في تلاقح بين كل الشعوب.. وعلى فرض وجود ثقافة محلية منغلقة على نفسها: فإن العالم لا ينغلق دونها، بل يغزوها الرحالون ويفقهونها ويُلحقونها بثقافات العالم؛ فهم

(٩٥) انظر المصدر السابق ص١٢٩-١٣٠ .

إيجابيون في عولمة الثقافة المحلية، والمحليون سلبيون في تقوقعهم.. وكان هذا قبل وسائل العصر السريعة التي لم تترك أي ثقافة محلية تغيب عن الأذهان .

وإذا كانت العولمة الثقافية ـ كما ينبغي أن تكون ـ عولمة برهانية: فمعنى ذلك أن العولمة لما هو حق وخير وجمال .. ولما كان البرهان محفوفاً بالإلف، والعصبية ، والأهواء والمحلية ، وسوء القصد ، والمنافع المؤقتة المرجوحة بنتائجها السيئة الوخيمة .. ولما كان الإجماع على البرهان سلوكاً محالاً (لأن الاختلاف سنة الله الكونية في خلقه)، وكان من الضروري تحقيق ما يجب أن يكون إنسانياً مشتركاً ؛ لتحقيق الوازع والدفع وسلامة الفطرة الإنسانية والطبيعة، والمشاركة لخصوصيات الشعوب التي هي اختيار حر للجماعات فيها : فإن للعولمة الثقافية مبادئ متمثلة في التالي :

١- أن يقود العولمة عقلاء يوجِّه البرهان سلوكَهم؛ ليحققوا القاسم المشترك الذي لا يحيف على الخصوصيات؛ فتبقى الدول والشعوب متعاونة في الأخذ والعطاء في ظل عدالة أطبقت عليها الأديان والعقلاء .

٢- محاربةُ ووأدُ ما يُفرض بالضغوط، أو يُروَّج له مما ينشر بكل وسائل الإعلام والبث باسم حرية الثقافة مما فيه تفكيك الجماعات وتدمير الأخلاق وتضليل بالإلحاد؛ فإن ذلك نظير الدعارة والمخدرات في الماديات، بل هو الداعي إليها .

٣- أكثر شعوب الأرض ذوو أديان ربانية دخل بعضها التحريف وبقي منها أصول مهمة مشتركة تدعو إلى صلاح الأسرة والمجتمع والفطرة، وتحافظ على العقل والعِرْض والنفس والمال ودين الآخرين.. وهذا يعني تبصُّر قادة العالم العقلاء في عبودية القانون الوضعي الذي أصبح مُعَولَماً ثقافياً وممارسةً

بكل الحيل الإبليسية ؛ فكان قاهراً لحرية المصلحين، حاكماً للدول العظمى ذات الأديان، ملغياً للأسرة والشرف والفضيلة والقوامة؛ لأن مخالفته جريمة.. وهو قانون ـ مهما اختلفت مواده الفرعية في بلد دون بلد ـ يقوم على ما سُمي حقاً طبيعياً، وما هو إلا الظلم للحق البرهاني وحيف مع الجانب البهيمي الحيواني، وإسقاط للقانون البرهاني الطبيعي الذي يعدل ـ بسلوك ذي مسؤولية برهانية ـ بين الغرائز والنوازع .. وبتبصُّرِ أولئك القادة تكون قوانينهم مبنية على ما أجمعت عليه الأديان، وما تمليه واجبات البرهان العقلي والاستطيقا الجمالية والخلقية المستندة إلى قيمة الحق في تكوين الذات وتوظيف الإدراك الحسي الباطني ـ خلقيّاً ، وجماليّاً وَفق مقتضى البرهان.

٤- أن تكون الدول والشعوب حرة في التناول الثقافي الذي تريده عن برهان، ولا يُفرض عليها نمط ثقافي بضغوط وإغراءات مبرمجة .

٥- جعل دعوات الإصلاح البرهانية جزءاً من العولمة الثقافية؛ لأن المفكر بعد حريته في الاطلاع ستلزَمُه مسؤوليةُ ما أوجبه الفكر، وسيكون عنده مفهوم الثقافة المضادة؛ فتظل له حرية الكلمة(٩٦) في النقد والبناء(٩٧) .

ولستُ مع مَنْ يجعل الثقافة المضادة كلَّ ما ليس محلياً.. قال الأستاذ مجدي

---

(٩٦) قال أبوعبدالرحمن : مُحَالٌ أن تجد في دول العالم كأوربا وأمريكا من يقوم واعظاً موجهاً في الأسواق والحانات والفنادق؛ لأن القانون والعولمة يأبيان ذلك.. بل الكلمة لدعايات الإغراء.. وغاية ما في الأمر أن شباباً وشابات فرُّوا إلى الصوامع مترهبنين .

(٩٧) هذه الحرية في ديننا ـ وعند العقلاء ـ تعني المعادلة بين المصالح والمفاسد، وهي مشروطة بالحكمة والبصيرة والموعظة الحسنة.. وقد نهى الله عن سبِّ آلهة المشركين حتى لا يسبُّوا الله عدواً بغير علم .

وهبة وزميله : « الثقافة المضادة اصطلاح أُطلق حديثاً على أي تعبير ثقافي يحاول أن يحـل محل الثقافة التقليـدية بمعناها المألوف.. وقد طُبِّق هذا الاصطلاح على الولوع بموسيقى الجاز وبالأغاني الشعبية والفلسفة الهندية المشتقة من مصادر دينية شرقية وغربية تميز آراء جماعة الهيبيز »(٩٨) .

قال أبوعبدالرحمن : الثقافة المضادة ما أبطله البرهان سواء أكان محلياً أم عالمياً.. وأُمَّتُنا ذات دين صحيح؛ فبرهانها من عقلها الذي خلقه الله، ومن دينها الذي أنزله الله.. وذوقها الجمالي والخلقي تربية هذا البرهان .

* * *

[قال المستشرق الفرنسي كيمون في كتابــه : « باثولوجيا الإسلام » : «إن الديانة المحمدية جُذام تفشّى بين الناس، وأخذ يفتك بهم فتكاً ذريعاً، بل هو مرض مريع، وشلل عـام، وجنون ذهـولي يبعث الإنسان على الخمول والكسل، ولا يوقظه من الخمول والكسل إلا ليدفعه إلى سفك الدماء، والإدمان على معاقرة الخمور، وارتكاب جميع القبائح.. وما قَبْرُ محمد [ﷺ] إلا عمود كهربائي يبعث الجنون في رؤوس المسلمين؛ فيأتون بمظاهر الصرع والذهول العقلي إلى ما لا نهاية، ويعتادون على عادات تنقلب إلى طباع أصيلة ككراهة لحم الخنزير والخمر والموسيـقى.. إن الإسلام كله قائم على القسوة والفجور في اللذات.

ويتابع هذا المستشرق المجنون إفكه بقولـه : أعتقد أن من الواجب إبادة خُمُس المسلمين، والحكم على الباقين بالأشغال الشاقة، وتدمير الكعبة، ووضع قبر محمد وجثته في متحف اللوفر »(٩٩) .

قادة الغرب يقولون / ص٤٢]

---

(٩٨) انظر معجم المصطلحات العربية ص١٢٩-١٣٠ .

(٩٩) الاتجاهات الوطنية ١/ ٣٢١، وتاريخ الإسلام ٢/ ٤٠٩، والفكر الإسلامي الحديث.

[قال مسؤول في وزارة الخارجية الفرنسية عام ١٩٥٢م : ليست الشيوعية خطراً على أورية فيما يبدو لي.. إن الخطر الحقيقي الذي يهددنا تهديداً مباشراً وعنيفاً هو الخطر الإسلامي، فالمسلمون عالم مستقل كل الاستقلال عن عالمنا الغربي؛ فهم يملكون تراثهم الروحي الخاص بهم، ويتمتعون بحضارة تاريخية ذات أصالة؛ فهم جديرون أن يقيموا قواعد عالم جديد دون حاجة إلى إذابة شخصيتهم الحضارية والروحية في الحضارة الغربية ؛ فإذا تهيأت لهم أسباب الإنتاج الصناعي في نطاقه الواسع انطلقوا في العالم يحملون تراثهم الحضاري الثمين ، وانتشروا في الأرض يزيلون منه قواعد الحضارة الغربية ويقذفون برسالتها إلى متاحف التاريخ.. وقد حاولنا نحن الفرنسيين خلال حكمنا الطويل للجزائر أن نتغلب على شخصية الشعب المسلمة ؛ فكان الإخفاق الكامل نتيجة مجهوداتنا الكبيرة الضخمة.. إن العالم الإسلامي عملاق مقيَّد، عملاق لم يكشف نفسه حتى الآن اكتشافاً تاماً ؛ فهو حائر، وهو قلق، وهو كاره لانحطاطه وتخلفه، وراغب رغبة يخالطها الكسل والفوضى في مستقبل أحسن، وحرية أوفر ؛ فلنعطِ هذا العالم الإسلامي ما يشاء، ولنقوِّ في نفسه الرغبة في عدم الإنتاج الصناعي، والفني حتى لا ينهض ؛ فإذا عجزنا عن تحقيق هذا الهدف بإبقاء المسلم متخلّفاً، وتحرر العملاق من قيود جهله وعقدة الشعور بعجزه فقد بُؤنا بإخفاق خطير، وأصبح خطر العالم العربي وما وراءه من الطاقات الإسلامية الضخمة خطراً داهماً ينتهي به الغرب ، وتنتهي معه وظيفته الحضارية كقائد للعالم »[١٠٠] .

قادة الغرب يقولون / ص٣٦-٣٨

]

---

(١٠٠) جند الله ، ص٢٢ .

الفصل الثاني : مسؤولية العقل :

* * *

[ليس أمامهم إلا حل واحد هو تدمير الإسلام : « ها قد هبَّت النصرانية والموسوية لمقاتلة المحمدية: وهما تأملان أن تتمكنا من تدمير عدوتهما»[١٠١].

يقول غاردنر : إن الحروب الصليبية لم تكن لإنقاذ القدس، إنها كانت لتدمير الإسلام[١٠٢] .

ونشيد جيوش الاستعمار كان يقول :

أنا ذاهبٌ لسَحْقِ الأمة الملعونة .

لأحارب الديانة الإسلامية .

ولأمحو القرآن بكل قوتي .

وشعار « قاتلوا المسلمين » الذي وزَّعته إسرائيل في أوربا عند حرب الـ٦٧، لقي تجاوباً لا نظير له في دول الغرب كلها .

يقول فيليب فونداسي : « إن من الضروري لفرنسا أن تقاوم الإسلام في هذا العالم وأن تنتهج سياسة عدائية للإسلام، وأن تُحاول على الأقل إيقاف انتشاره »[١٠٣] .

---

(١٠١) استعباد الإسلام ـ ص٤٤ .

(١٠٢) التبشير والاستعمار ص١١٥، جذور البلاء ص٢٠١ .

(١٠٣) الاستعمار الفرنسي في إفريقية السوداء، تأليف فونداسي ص٢ .]

[قال الإمام أبومحمد ابن حزم رحمه الله تعالى : « وغسل اليد قبل الطعام وبعده حسن.. روينا من طريق أبي داود : نا أحمد بن يونس: نا زهير ـ هو ابن معاوية ـ: نا سهيل بن أبي صالح: عن أبيه: عن أبي هريرة [رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ] قال : قال رسول الله ﷺ: « من نام وفي يده غَمَر[١٠٤] ولم يغسله فأصابه شيء فلا يلومنَّ إلا نفسه » .

قال أبومحمد : فهذا ندب لا أمر ، والجرذ ربما عضَّ أصابع المرء إذا شم فيها رائحة الطعام ، ولم يأتِ نهيٌ عن غسل اليد قبل الطعام.. وقد قال قوم: هو من فعل الأعاجم.. وهذا عجب جداً!!.. وإنَّ أكْلَ الخبز لمن فعل الأعاجم ، ولو أراد الله تعالى تحريمه أو كراهيته لنا لبيَّنَه !!.

فإن قيل: فقد صح الخبر عن النبي ﷺ: « أنه قُرِّب إليه الطعام فقيل له: ألا تتوضأ؟.. قال : لم أصلِّ فأتوضأ » فليس في هذا ذكر لغسل اليد قبل الطعام أصلاً ، وإنما فيه الوضوء وهو كما قال عليه السلام: « لا وضوء واجباً إلا للصلاة »[١٠٥]

قال الإمام أبومحمد ابن حزم : « وساقي القوم آخرهم شرباً ؛ لما رويناه من طريق ابن أبي شيبة : نا شبابة بن سوار : عن سليمان بن المغيرة: عن ثابت ـ وهو البناني ـ : عن عبدالله بن رباح : عن أبي قتادة [رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ] : عن النبي ﷺ قال : « ساقي القوم آخرهم شرباً »[١٠٦] .

---

(١٠٤) وفي يده غمر ـ هو بفتحتين ـ الدسم والوسخ وزهومة اللحم ، وهو في « سنن أبي داود ».. قال المنذري: وأخرجه ابن ماجه ، وأخرجه الترمذي معلَّقاً [أحمد شاكر].

(١٠٥) المحلى ٨/ ٧٤-٧٥ .

(١٠٦) المحلى ٨/ ١٥٠ .]

في تاريخنا الإسلامي ميزتان : أولاهما المحاكمة، وأخراهما التوصيل .. أما المحاكمة فإن أمتنا العربية ناصعة الفكر بالفطرة، وليس ذلك عن تأثير البيئة الصحراوية كما كرر ذلك ابن خلدون في مقدمته، بل لفضل ذاتي عرقي إضافةً إلى البيئة.. وبعد الانتقال من البداوة والأمية القلمية والثقافة والعلمية أصبح العقل العربي محاكِماً؛ لأن تكوُّن العروبة من عشائرية إلى أمة كان بفضل الإسلام وتربيته؛ فاجتمع للعربي الذكاء والزكاء ما شاء الله من الزمـن حتى تقاســم الأعاجــم تركته من الرقعــة ، وأعــادوه إلى البــداوة والصحراء في الجملة، وإن بقيتْ عناصر عربية كثيرة انغمست في ترف الحضارة، ونشطت قلة قليلة من تلك العناصر للثقافة والعلوم النظرية والعلمية.. ومن القلةِ قلةٌ قليلة أيضاً تفرغت لجوانب من العلوم البحتة انطلاقاً من الفلسفة.. ومعنى المحاكمة الذي أريده : أن فطرة العقل العربي : الأخذُ بالميزة وطرح الجمل، وتيسير العلم الإنساني ونقده كما نرى في ريادة فلاسفتنا الأوائل منذ الكندي والفارابي.. إلى ابن رشد وابن باجَّه.. إلى عِلمِ الكلام المعارِض الذي تبلور عند أبي حامد الغزالي، والفخر الرازي، وشيخ الإسلام ابن تيمية.. وحاجتنا إلى المحاكمة اليوم أمَسُّ؛ لأن أمتنا لا تشتكي الغبن إلا في ثلاثٍ هي سِرُّ التفوق الدنيوي :

الأولى : الكشف الكوني في اليابسة، والبحار والسماء؛ لمعرفة مزيد من قوانين الكون الـمُعِينةِ بإذن الله على التعامل مع الطبيعة، وعلى الاختراع.. ونحن في هذه مفلسون إلا من اجترارِ تراثي في بعض هذا المجال، ومحرومون

من امتلاك وصنع أحدث الأدوات التي تزيدنا خبرة بالكون ـ وهي مهما عظمت ظاهر من الحياة الدنيا ـ كالمراكب الفضائية، والأقمار الصناعية .

والثانية: الاختراع والصنـع؛ فقد نصنع الحــذاء والمِغْزَلَ والمخيطَ، والمسحاة.. ثم لا نحقق الاكتفـاء الذاتي .. أما الصاروخ والذرَّة فدونه خَرْط القتـاد (بل أَكْلُهُ).. حتى محاولة بعض بلادنا الإسـلامية صنع الطائرة إنما هو صنع هياكل، أما الروح والأجهزة الدقيقة فلا سبيل إليها إلا بالاستيراد .

والثالثة : المعارف النظرية الثَّرِيَّة في تراثنا فقهاً ولغةً وتاريخاً وآداباً ونظاماً ـ وهي موضوع المحاكمة ـ : فإنما ينقصنا منها ما كان زيادة علم وقف عندها عطاء العقل العربي الذي لم يكن نهائياً؛ فحاجتنا إلى الاسترفاد من العطاء الإنساني مشروط بجبلَّة العقل العربي في المحاكمة في أطُرِ ثلاث دوائر هي : الحق ، والخير ، والجمال؛ فنرفض العطاء الإنساني الجديد الذي يرفضه الحق والخير والجمال بعد استيعابنا لفلسفته المغلطائية.. ثم نَنفُذ من أغوارها بنقدٍ مشرق حاسم، وذلك هو المحاكمة ؛ فبوجود وسائل الاتصال السريعة الهائلة، ويُسْرِ التجوال على المعمورة نصحح رحلة أمثال ابن بطوطة، وبعلمِ الأحياء (وثمارُه وقائع حسية مشهودة) نصحح أدبيات الجاحظ في كتابه الحيوان، وبالعلم الدقيق عن نشأة اللغة لدى الطفل نصحح كثيراً من ميتافيزيقيات اللغة مع احتفاظنا بالحقيقة الشرعية في أن نشأة اللغة ابتداءً تعليمٌ من الله.. أي توقيفية، ثم اتسعت أوجهُ تبلبلِ الألسن، وأوجه النمو لكل لسان.. وفي أدب الحداثة قيم جمالية فكرية ليست في تراثنا (إما بإطلاق،

وإما بذلك الكمال المستجِدّ) كاتساع دائرة الموسيقى الخارجية التي هي أرحب من هياكل البحور الخليلية التي حصرت موسيقىً عربية تاريخية ولا تمنع من تجدُّد موسيقــيّ لم تعرفــه الألحــان العربيــة المأثورة؛ لأن موسيقى الوجود أرحب.. وكتفجير الدلالة البلاغية التركيبية من إشارات المسَمَّى إذا قَصُرَتْ ـ أو سئمنا (١٠٧) ـ دلالة الاسم .. ثم نَحْذَرُ ريادة الطائفي والشعوبي والمِلِّيِّ في تلقٍّ حداثي مطلق يمزجنا بالريح، ويهدم الكيان المعتبر (ديناً وتاريخاً ورُقعةً وأمةً ولغة).. ونحن لا نساوم على ما كان قطعي الدلالة والثبوت في ديننا من عقوبة المجرم بعقوبة محدَّدة، وما كان قطعي الدلالة والثبوت من طرق الإثبات التي هي البيِّنة التي يقابلها يمين من أنكر، وما هو مطلوب يقيناً بضرورة الدين من تربية وقائية .. فإذا استجد في العلم الحديث وسائل من التخدير تُريح قتلَ مجرمٍ تحقَّق قتله : فإنا نرفض ذلك، ولا نقبل إلا ما شرعه الله من القتل حَدّاً أو قصاصاً؛ لأننا لسنا أرحم ولا أحكم من ربنا في التيسير.. وإذا استجد في العلم الحديث طرق إثبات يقينية أو رجحانية ولا يترتب على استعمالها محذور شرعي أخذنا بها، وأضفنا إلى مأثورنا في طرق الإثبات الشرعي إذا كان الاعتراف يقتضي تعزيراً كالقتل.. أما ما كان مبنياً علىٰ الستر كالزنا الذي حكمه الرجم فلا نطلب أي طريق إثبات ـ ولو كان قطعياً ـ إلا ما شرعه الله من طرق الإثبات، بل نأخذ بطرق

---

(١٠٧) قال **أبوعبدالرحمن** : كما في مذهب الطبيعيين التصويريين، وقد أفضتُ في شرح ذلك بكتبي الأدبية .

الإثبات الحديثة (إذا كانت يقينية) في تبرئة المتهم.. وسقوط عقوبة الرجم لا يعني سقوط عقوبة تعزيرية إذا قويت التُّهمة.. وإذا وجدنا في علم النفس الحديث ـ وأكثره قائم على كيد صهيوني منذ فرويد ـ مُعِيناً على التربية والوقاية من الجريمة أخذنا به إذا تخلَّف من مانع شرعي. وهكذا أدبياتنا نصححها بالعلم الحسي كما نصحح أدبيات القوم بعلمنا الشرعي اليقيني ومحاكمتنا العقلية؛ فكل معتقد لنا في الأفلاك أو الأحياء.. إلخ مبنيٌّ على إرث متوارث، أو نص شرعي محتمل الدلالة: نتنازل عنه إذا أصبح المعارِض العلمي يقينياً ، ونعلم أن فهمنا للنص محتملِ الدلالة فَهْمٌ مرجوح ؛ لأن براهين الحس من المرجِّحات دلالةً.. وميتافيزيقاهم عن بداية الإنسان على أنه همجي يعيش كالحيوانات، وأن التاريخ في صعود دائم لا تأرجحٍ ، وأن هناك متحجرات من الأحياء يُقَدَّر عمرها بملايين السنين : نرفضها بالظني المتخيَّل عندهم ــ وهو محدودية المدة للآلة التي تُقَدِّر الأعمار ــ ، وبما أثبته العلم من تزوير في المتحجِّر عن الإنسان القرد، وبما أثبته العلم من قصور وسائل تقدير الأعمار عما فوق ثلاثة آلاف سنة.. ودعك من الملايين والبلايين !! .. وبالرجحاني من ديننا عن عمر الكون ـ ولله سبحانه أكوان قبل أن يخلق السموات والأرض والبشر ـ ، وباليقيني من ديننا عن أوَّل بشرٍ علَّمه الله وأوْحَى إليه (وهو آدم عليه السلام)، وباليقين التاريخي عن حضارات مادية سادت ثم بادت، وعن أمم همجية في بعض العصور والأمصار، وعن عصور ذهبيةٍ عُمِرَتْ بالرسل والأنبياء عليهم الصلاة

والسلام، وبالمصلحين من ورثتهم رضوان الله عليهم ؛ إذن التاريخ تارجح لا صعود ، وستكون نهايته هبوطاً ألبتة ؛ لأن الساعة لن تقوم إلا بعد فساد كل البشـر وهبوط التاريخ إلى الدَّرَك.. حتى الكشف الكوني الذي هو محاولات بشرية تُريد الوصول إلى العلم : فهو محكوم بثوابت الشرع القطعية؛ لأن خبر الحقيقة أصدق من خبر من يحاول اكتشافها بالتحرِّيات .. ومن الثوابت أن السماوات محكمة البناء والأبواب لا تُدخل إلا بإذن من الله لملائكته الكرام؛ وبهذا نعلم أن بلايين البلايين من النجوم والمجرات والشهب (مما عرف العلم الحديث شيئاً عنه، وما يحتمل أنه أعظم من ذلك مما لم يعرف عنه شيئاً) : إنما هو من الأفلاك المكشوفة كالأرض، وكلها دون السماء الدنيا .

وحياتنا العلمية استجد فيها وقائع كثيرة تحتاج إلى أحكام شرعية، ونحن نعلم بيقين أن أحكام الله الشرعية ثابتة منطبقة على ما جدَّ وما سيستجد، وأن أحكام الشريعة محصورة بالنسبة إلى الوقائع اللاَّمتناهية؛ لأن أكثر أحكام الشريعة منصوص عليه بالمعنى والصفة لا بالاسم الذاتي؛ فما وجد فيه ذلك المعنى الشرعي من الوقائع المستجدة (النوازل) أُجري فيه حكم ذلك المعنى إذا تخلَّف المعارض.. وليس كل حكم في النوازل يكون اجتهادياً، بل يكون نصيّاً، وإنما الاجتهاد في الواقع من جهة تحقيق انطباق الحكم الذي هو المقتضي مع العلم بتخلف المانع.. وما لم يوجد فيه معنى الوجوب أو الندب أو التحريم أو الكراهية أو الفساد أو الصحة : يُستصحب فيه معهود البراءة الأصلية التي هي عَفْوٌ كما في حديث أبي هريرة رضي الله عنه الصحيح .. والعفو

لا يقتضي الإباحة، بل يقتضي التحري بالعقل النظري.. وما لم يُحَدِّد لنا الشرع تنظيمه كبعض مسائل الحكم، أو لم يحدد لنا فيه تنظيماً ألبتة؛ لأنه وقائع مستجدة: فإننا نسنُّ نظامه، ونستفيد من تنظيم الآخرين؛ لأن ذلك موكول إلى اجتهادنا كأنظمة الإدارة والتوظيف والجوازات.. ولكن ذلك مشروط بخلو النظام من محظور شرعي ، وبتحقيقه للمقاصد الإسلامية؛ فإن في الوجود كليات كحفظ النفس.. والشرع يحرص على حمايتها؛ فالتنظيم للمرور مثلاً ضروري من أجل هذه الكلِّيَّة.. ونحن نُؤمنُ بأن فقه القانون الوضعي لامِعٌ عقلياً في تحقيق مصالح دنيوية، ونؤمن ثانية بأنه قائم على إلغاء شرع الله في خلق الله؛ لأن أساسه ما سُمِّي ظلماً وعدواناً بالحق القانوني تبعاً لما سُمِّي حقاً طبيعياً.. وهو حق يحجِّم الطبيعة؛ فيدَلِّل الغرائز وهي طبيعية، ويلغي العقل المرجِّح بين الغرائز وهو طبيعي(١٠٨) .. بل فيه إفساد للمجتمعات بإسقاط العقوبات الرادعة كالقتل والقطع، وإتاحة التدليس بأنظمة المحاماة غير المنضبطة بقوانين شرعية وعقلية.. ولكن القانون المدني مثلاً في البيوع والعقود إذا طابقتْ مادَّته حكماً شرعياً فإن الفقيه المسلم يفيد من دلالات فقه القانون ولا سيما في الوقائع المستجدة كالعقود المتعلقة بحقوق التأليف ، أو في وقائع لم يقتلها فقهاؤنا بحثاً كنزع الملكيات.. وما أيَّد المسلَّمَ في بناء الحكم الشرعي الاجتهادي من برهان يقيني أو

(١٠٨) بيَّنتُ كثيراً أن « الفعيلي » هي الأصل باستقراء اللغة لا بتقنين كتب النحو، وأن الفَعَلي هو الاستثناء .

رجحاني: فهو أولى باحتوائه من كل مخالف له في النِّحلة أو المِلَّة؛ لأن الحق ضالة المؤمن يأخذها أنّى وجدها.. وكل كشف كَوْني، وكل سعي لطلب المزيد منه مطلوب شرعاً؛ لأن الله استحثَّ عقولنا وحواسنا على التدبر والتأمل والفحص.. وكل اختراع صناعي: إما أن يحقق للأمة قوة كصنع الصاروخ، وإما أن يحقق لها ضرورات وكماليات كصنع العقاقير للعلاج المجرَّب، وكصنع سماعة الطبيب ومعمله.. وإما أن يحقق لها متعة؛ فما حقق قوة أو ضرورات وكماليات فالشرع يطلب تحقيقه بمهارة المسلم أو تملُّكِه، ولكنه يتدخل في وظيفته؛ فلا يُوَظَّف إلاَّ في حق وخير وجمال.. وما كان متعة فالشرع يبيحه إذا خلي من المحرم والمكروه.. وما لم تكن له وظيفة إلا المحرم فالشرع يُحرِّم صنعه وتملكه، لحرمة وظيفته الواحدة.

وأمة الإسلام التي جعلها الله وسطاً وقعتْ جماهيرُ منها في الخرافة والبدعة والإباحية والإلحاد، ولكن من رحمة الله بها وكونِها وسطاً؛ ولضمانةِ طائفة منها تكون على الحق لا يضرها مَنْ خذلها إلى يوم القيامة : لم يجعل الله الفساد في الأرض على يدها: من علنية الإلحاد، والإباحية، ومنهكات الروح والجسد، والحيف على الفطرة، والظلم عسكرياً واقتصادياً وثقافياً وتضليلاً فكرياً حتى عم العفن وجه المعمورة، وإنما كان ذلك على أيدي أهل الكتاب بجهلٍ من طائفة وتضليل من أخرى .. وهو تضليل اليهود الذين يكيدون شعوب الأرض حتى أفرزوا الصهيونية العالمية التي ترعى العمل التخريبي في الظلام من مجمَّعات ماسونية تُفرِغ العقول من أديانها وقيمها، وتشحنها بكل عداء للنفس وللبشر.. ومن مجمعـات ووسائل تتقن

التصفيات الجسدية والمعنوية وشراء الضمــير بالمال والجنس والتلميع. ولو قام العلم المادي الحديث في بلاد المسلمين : لكان الإسلام حليفاً للعلم كشفاً واختراعاً، ولكان موظِّفاً له في الحق والخير والجمال، ولكان حامياً للمجتمعات من هذا الانغماس والكفــر والإباحية.. ولا يعني هذا أنه لن يوجد في علماء المسلمين وأعشار العلماء من يُحَرِّم بعض ما جهله؛ لفهم منه للشرع خاطئٍ؛ فإن هذا حصل ويحصل كثيراً، لكن الإجماع الجزئي لعلماء المسلمين سوف يفحص الواقعة، ويتصورها كمال التصور، ثم يفتي بما يدفع العلم ولا يحظره، وتستقر الأمور بقرار ولاة الأمر المبني على الاجتهاد الجزئي، ويبقى المعارِض في جهله، أو يُذعن لما صحَّحه الإجماع الجزئي .

والسائبون من أبناء أمتنا منابع ثقافتهم: غالي شكري، وجبرا إبراهيم، والثابت والمتحول، وغادة السمان، والعالِم، ومجلة الآداب، ومجلة المعرفة، والخال .. إلخ.. وفي عقيدة هؤلاء أن غلواء الفكر الوافدة ـ إن كانوا يحسنون تفسيرها ـ من وجودية وماركسية وتجريبية ووضعية ونهستلية وهيبية إلى فلسفات الديموقراطية (دكتاتورية الشهوة الطبيعية) والعقْد الاجتماعي: إنما هي مواجهة حضارية علمية بريئة من التخريب المقصود سياسياً ودينياً وعلمانياً؛ فهؤلاء الشبيبة ـ من منظار انصرافهم عن المثابرة الفكرية واكتفائهم بالشهرة الصحفية ـ : أخشى منهم التمادي على الاستسلام للتضليل الفكري، وأن ينظروا إليه على أنه وافد معصوم يجب أن يُغنينا عن الجذور لنجعله جذراً في ذاته.. وأخشى منهم التمادي على تحقيق ما لم يحلم به مؤسسو المرحلة الثالثة من مراحل الصهيونية العالمية : من تقويض

الأديان، وإصابة الفكر البشري بالخبال، وتسفيه ما لم يحيطوا بعلمه من خبر خالق الكون وفاطر السماوات والأرض .

إن ما تعانيه رقعتنا من عذاب الفكر البشري ليس مواجهة حضارية، بل يجب أن نرفض التعبير بالمواجهة الحضارية في تعاملنا مع الفكر البشري الراهن؛ لأن هذه الجملة لا مدلول لها في واقعنا، وإنما علاقتنا بالعالم الأقوى ذات وجهين :

أولهما: العلم المادي، وهو الوجه الحضاري الصحيح من جملة الوافد، وهذا العلم يحقق قوة أو متعة في التعدين والصناعة والعمارة؛ فليست بيننا وبينهم في هذه النقطة مواجهة، وإنما واجبنا التتلمذ المخلص لكسب العلم، وأن ينفر منا طوائف تعود فتسد الثغرة.. والمواطن العربي المسلم لا يطلب حضانة من هذا الوافد، ولا يتبرم بموجود منه على قلته، ولا يشكو منه حذراً ولا ريبة .. بل الأمر على العكس من ذلك ؛ فنحن نشكو الإفلاس ؛ لأن موجودنا من الكسب المادي نزر جداً ، وجانب المتعة فيه يغمر ويطمر جانب القوة، كما نشكو استغلال مواهب أمتنا التي تحترف في معامل العالَم الأقوى، وتُدرج في بيانات العقول المهاجرة حيث لا تجد مجالاً لتخصصها في عالَمَينا المتخلف والنامي.. وأعني بالتخلف نطاق العلم المادي الدنيوي فحسب .

وثانيهما : العلم النظـري في الفكر والفلسفـة والأديان وفلسفة التاريخ والاجتماع واللغـة والنظـام والإدارة والقانـون والتربيـة والأدب والفن

والسياسة .. إلخ؛ فنحن ههنا في لحظة مواجهة عالمية عدائية تضليلية، وليست مواجهة حضارية؛ لأن المواجهة الحضارية مشـروطة: بأن يكون موضوع المواجهة من العلم المادي من أفكار، وأن يكون لنا ـ نحن العرب والمسلمين ـ علمٌ مادي نؤهله لمواجهة حضارية.. بل الواقع أنها مواجهة علمانية وصليبية وصهيونية مادتها النظريات الفكرية لا الحقائق العلمية .

ونستطيع أن نواجه هذه الغارة بمواهبنا (أصالتنا الفكرية)؛ لأن العقل قسمة الله العادلة بين خلقه، وبعصمة مأثورنا، وهو خبر وتشريع خالق الحقيقة .

وإذا قلت : (نواجه) فليس معنى ذلك (أن نرفض)، وإنما معنى ذلك أن نملك أهلية المواجهة فيما نأخذه من ميزة ونتركه من وَشَب.. وكل ما رفضناه ـ ونحن نملك الأداة ـ : فهو لا يُسيء إلى تعاملنا مع الحضارة، ولا يوصف بالمواجهة الحضارية؛ فإذا رفضنا فكرة سبينوزا ـ وهو فيلسوف يهودي ـ عن قانون الشهوة الطبيعي الذي بنى عليه نظرية الديموقراطية في السياسة، ورفضنا فكرة الجهل والهمجية في قانون الطبيعة الذي قال به توماس هوبز، وجان جاك روسو في نظريتهما السياسية : فإننا لم نرفض مظهراً حضارياً ولا قانوناً علمياً، وإنما رفضنا تنظيماً نظرياً نحن أدرى بفشله وتخلُّفه، ولأن تنظيم خالقنا لنا ليس في كفة المعادلة مع ميتافيزيقيا سبينوزا اليهودي، وهوبز الملحد، وروسو الماسوني .

وإذا رفضنا فكرة صراع الطبقات وجدلية التاريخ التي تمخّض عنها

دكتاتورية الأقلية من الحزب الشيوعي الحاكم فالمعيار هو نفسه المعيار الذي رفضنا به بهيمية الديموقراطية .

قال (براتراند رسل) : « إن كلمة الديموقراطية تعني شيئين مختلفين : فهي غرب الستار الحديدي تتضمن فكرة استقرار السلطان الأخير في يد أغلبية الراشـدين مـن السكان ، وأما شـرق السـتـار الحديـدي فهي تعـني إقامة دكتاتورية عسكرية مكونة من أقلية صغيرة »[١٠٩] .

وإذا وُجد بيننا ناعق يُدلي بالقومية ولو كان نصرانياً ، أو يدلي بالوطنية ولو كان علمانياً ؛ فأورد تلك الأفكار الغربيـة : فإن معيار الرفض لا يتغير، بل نضيف أن الناعق ليس أصيلاً في فكره .

وإذا رفضنا الانحراف بفطرة العقل البشري في التفكير الأدبي فليس معنى ذلك أننا نرفض نموذجاً أدبياً يضيف إلى أدبنا متعة أو حقيقة، وليس معنى ذلك أننا نزعم المطلق والعصمة في تراثنا الأدبي، وإنما معنى ذلك أننا نحمي سلطان العقل من جنون العلمانية المفتعل؛ لأن العقل شرط تكليفنا، ومحك تبصرنا، ولأن العلم المادي محكوم بقانون العقل وشهادته .

وأتحدَّى بالنفي المطلق كلَّ من هبَّ ودبَّ : أن يجد عنصراً واحداً في هيبية الفكر يحفل به العلم، أو أن يجد قانوناً علمياً واحداً تحرر من سلطان العقل .

وإذا فرحنا بتفجيرٍ علمي تجاوز النظرية إلى الحقيقة يصدع به طبيب أو فلكي أو جيولوجي أو عالم حشرات فجَعَلْنا حقيقته تفسيراً صحيحاً لأحد

---

(١٠٩) برتراند رسل المفكر السياسي لرمسيس عوض ص٩٣ .

نصوص ديننا : فليس معنى ذلك أننا جعلنا العلم حاكماً على ديننا، وإنما معنى ذلك أن النص خبر خالق الحقيقة والعلم، وأن المكلفين بتحمل النص بشرٌ يصيبون ويخطئون في فهم المراد، ويُرجِّحون بوسائل لغوية وسياقية وقرائن أحوال؛ فإذا صح الكشف العلمي وأصبح حقيقة حسية كان أحق بأن يكون من المرجحات.

أما قطعيات الشرع كعلمنا بأن السموات محروسة لا تُدخل إلا بإذن الله، وأن لله غيباً لا يُطلع عليه أحداً من البشر، وأن آدم خُلق ابتداءً ولم ينشأ عن قرد ـ عليه السلام وكرَّمه الله ـ : فهذه هي الحاكمة على ما يُدَّعى باسم العلم من نظريات بحيث نجعل النص حقيقة والنظرية وَهْماً.

وإذا فرحنا بمعمارية القصيدة الحديثة بعد تنقيتها من المضمون العدائي فمعنى ذلك أننا نأخذ الميزة، ولا ندعي المطلق في تراث أدبي غير معصوم.

ومن هذا المنطلق لا أرى أن شباب المسلمين بحاجة إلى حضانة تحجب عنهم العلم بالمتغيرات إذا بُصِّروا بالبواعث والعــواقب، وهذا التبصير يقتضي برامج تربوية تعليمية، وتراعي على وجه الخصوص التالي :

١- أن يقتــصر التاريخ الحضــاري والسيــاسي والجغـرافي على مراحل الابتدائي والمتوسط .

٢- أن يكون التاريخ الحضاري والسياسي والجغرافي في المرحلة الثانوية مقتصراً على العالم الحديث .

٣-أن تُعفى مراحل الدراســات الجامعــية من التــاريخ السيــاسي

والحضاري والجغرافي، ويستبـدل كل ذلك بتاريخ الأفكار والاتجاهـات الحزبية والقومية والوطنية التي عشعشت في الرقعة العربية والإسلامية قبيل الحرب العالمية الأولى إلى عصرنا .

ولا نعبأ بالتحسُّبات السياسية ؛ لأن الآخرين لا يذكروننا إلا بالرجعية والتخلف، ولا ضير علينا إذا كان مبدؤنا الصدق والواقعية.

وتبرمج مناهج الجامعات على هذا النحو :

أ- السنة الأولى والثانية عرض منهجي يُرتِّب الأفكار تاريخياً وموضوعياً من سلفيـة وعلمــانية وتوفيقـية، ويُعرِّف بأقطـاب الدعـوات ومـلابساتهم التاريخية من مسلمين ونصارى ويهود وعرب ملتزمين، ويُعرِّف بما ترتبت عليه هـذه التـيارات من مجمعـات ومؤسســات وأحـزاب ومجـلات ومطابع وكتب ذات أثر مع التعريف بهوياتها .

ب- في السنة الثالثة والرابعة تُفَلْسَفُ الحركة الفكرية، وتُردُّ إلى بواعثها وتُذكر عواقبها، ويُعرَّف بالأصابع الخفية كالماسونية بتحقيق علمي، ويُستفاد في هذا الحقل من تجربة الرواد كالاتجاهات الوطنية للدكتور محمد محمد حسين ، والشعـوبية للجندي، وكتب الدكتور محمد البهي .. كما يستشهد باكتشافات عقلاء الغرب لمكائد التخريب الفكري والديني، ويستشهد أيضاً بالكتابات المحايدة التي أَرَّخَتْ لبواعث الضغوط في الواقع الراهن ككتاب الضغوط الخفية التي تحكم العالم .

ج- تأليـف موسـوعة ضخـمـة بعيــدة عـن الإنشـاء الأدبـي تُوَزَّع على

الطلاب مجاناً للقراءة الحرة عن متغيرات الفكر الحديث تأليفاً يجمع بين التاريخ والتصنيف الموضوعي والتعليل النظري والحسي مع إيراد كل معاني الفكر الحديث بتلخيص الألفاظ وأظن هذا العمل سهلاً جداً بشروط ثلاثة:

أولـها : أن نجعل المنطلق من أحـد المؤلفات الموجـودة ككتاب تحولات الفكر والسياسة في الشرق العربي للدكتور محمد جابر الأنصاري باستدراك ما فاته مع تنقية الكتاب من بعض الشوائب .

وثانيها : أن نُفرِّغ عشرات من الباحثين يجمعون المادة من الدوريات والمؤلفات والمصادر الأجنبية الأعجمية أو المترجمة .

وثالثها : أن نترك الانتقـاء والتهذيب والتعليـق وشرح الفكرة ونقيضها للنخبة الممتازة من المفكرين، ونجعل في طليعتهم ذوي الوعي الحقيقي بمفهوم الدين الإسلامي في مختلف البلدان العربية والإسلامية؛ وبهذا يكون لذوي الحيوية من الشباب الناشئ مستقبلاً حرية الحكم ما دام الفكر الحديث : مؤرَّخاً لهم، مبينةً منابعه وبواعثه، مُعرَّفاً بهوية القائمين عليه .

وقد رأيـت الأدبَ والفـنَ الحديثين وَكْرين للدعاية العلمانية والطائفية التبشيرية ؛ ولخفاء البواعـث والمنابع انهمـك الناس في هــذين الفرعين ولم يفصلوا القيمة الأدبية والفنية عن المضمون الأيديلوجي المعادي .

وثمة منابع يجب أن يكون لها تعريف شائع يساوي في الشيوع اسمها الذي عُرفت به كالوجودية لابد أن تتعرف باسمهـا وأوصافهـا؛ فالدكتور

روجيه جارودي يرى أن الوجودية فلسفة الاستعمار(١١٠) .. وهذا حق؛ لأنها فلسفة الغثيان، وفلسفة إرساء القيمة للوجود البشري، وبناء صرحها على العبودية لنازع الشهوة والحيوانية الذي سماه قانوناً ، ومضغ به لسانه أكثر من ماسوني مأفـون كالمهرطق الصغـير « سبينوزا » في كتابه رسالة

---

(١١٠) قال جارودي في كتابه نظرات حول الإنسان ص٧٤-٧٥ : « الفكر الوجودي في صميمه فكر ديني ؛ ففي أثناء انعقاد جلسة الجمعية الفرنسية للفلسفة في ٤ ديسمبر ١٩٣٧م ـ وهي الجلسة التي تُمثِّلُ بصورةٍ ما الجلسة شبه الرسمية التي تم فيها انتقال السلطة من أيدي الفلسفة المثالية إلى الفلسفة الوجودية ـ : أعلن ليون برنشفيج شخصياً في هذه الجلسة ما يلي : أنا أتحدث إليكم مدركاً أني أنتمي إلى جيل شهد فكراً بات من واجب جيلٍ آخر جديد أن يأخذ على عاتقه مهمة استمراره .. كان الحوار الذي دار بين جان فال وجبريل مارسل كبير الدلالة في هذا الشأن ، وقد وضع برديف المشكلة بوضوح أثناء هذه الجلسة بعينها .. قال : (تصبح الفلسفة أقل وجودية إذا انتقلت من الذاتية إلى الموضوعية ، لكنها تظل وجودية إذا عاش الفيلسوف في الذاتية واتجه منها إلى الوجود المتعالي .. الذات يعني حضور الوجود المتعالي فيها ؛ وذلك لأن عالم الذات كلما أحكم إغلاق الباب على نفسه فإنه يكتشف فجأة وجوداً متعالياً) .. وأضاف جان فال : (لكن الوجود المتعالي لا يعني بالضرورة الوجود الإلهي ، ولا يعني كذلك بالضرورة وجود الشيطان ؛ إذ قد يعني ببساطةٍ وجود الطبيعة) .. فرد عليه جبريل مارسل محتجاً : أنا لا أعتقد أبداً أن فكرة الوجود المتعالي من الممكن أن تُقبل علمانياً).. فأجاب جان فال مدافعاً عن موقعه : (وأنا لا أقبل بسهولة فكرة أن الوجود يمثل في ذاته واقعة دينية ؛ فالدين عندي يقوم بما يقوم به جواب السؤال .. أما الوجود فهو يقوم أولاً بما يقوم به السؤال).. والحق أن دفاع جان فال عن موقفه لم يكن سهلاً ؛ فإذا لم يكن الوجود يُمثِّل واقعة بل قيمة فهو يقوم فعلاً بما يقوم به السؤال .. لكن السؤال هنا سؤال ديني .. وكما يقول فورست : أن تكون موجوداً معناه أن تكون مرغوباً فيك ، وهذا يعني بعبارة أخرى أن تستحق الوجود» .

اللاهوت والسياسـة.. وبناء صرحها أيضاً على الانعتاق من تاريخ البشرية .. أعني محصلة العقل البشري من تجارب الأجيال؛ لتبدأ مسؤولية الوجودي من فراغ.. أو قل من الحيوانية الفردية الحائفة على توازن الفطرة المنكرة لتربية المرسلين والمصلحين، ومن كان هذا شأنه فهو عبد الاستعمار ومطيته!! .

وهي فلسفـة النفاق الفكـري؛ لعجـزها عن تسويغ معقول يُوَفِّق بين دعويي الحرية والمسؤولية توفيقاً يدل على حسـن نية فكرية!! .. وهي فلسفة الصهيونية؛ لأنها إيعاد بكل نبوآت التلمود وأناجيل الصهاينة السياسيين الذين يرتقبون المِسْيا والدولة العالمية اليهودية الواحدة على أنقاض الدين، والتزهيد في العلم، والصد عن الأخلاق، واعتبار الدين والخلق مجرد نشاط ذهني أو عاطفي كالشعر !! .. وبناء وجود الفرد على الشهوة والحيوانية مما يزيد رصيده من الاستـلاب والضيـاع والغربـة والغثيـان والقنوط ونواح الأنانية الممزقة ..وهي فلسفة الإلحاد؛ فلا مجال لدعوى وجودية مؤمنة .. أما فلتات : « اعرف نفسك بنفسك » كما أطلقها سقراط، وأما سيادة النفس في الانتصار على أهل التسفسط كما عبر بذلك الرواقيون، وأما الإثراء من معين النفس عقلاً ووعياً ووجداناً، وأما التعمق في أغوار النفس باعتبارها إحدى جزأي الطبيعـة المخلوقـة.. أما كل ذلـك فهو أبعد ما يكون عن الفلسفـة الوجوديـة وإن اتخذته شعـاراً؛ لأنها عند التفلسف أخذت نازعاً نفسياً واحداً هو حرية الشهوة !.

إن الفِكَر ـ جمع فكرة ـ والظنون والمغالطات التي كوَّنت فلسفةً وجودية

لا مجال فيها لوجودي مؤمن.. إن الوجودية ببنائها الفلسفي والإيمان نقيضان.

اذكروا من الوجــوديين المؤمنــين بزعمــهم العــالم الريــاضي الفرنسي الوجودي بسكال بليز (وهو قبل سارتر بقرنين ونصف) ؛ فقد كان يزعم أنه لا ينكر خالق الوجود؛ لأنه لا ينكر رؤية شيء يدل على وجوده.. وفي الوقت نفســه لم ير في الوجود ما يريح إيمانه بخالق الوجــود!!.. لهذا فهو في حالة وجود تستحق الشفقة !.. فهذه كلمة وجودي يدَّعي المدَّعون أنه من الوجوديين المؤمنين ؛ فأي إيمان كهذا يعوزه اليقين ؟!.

أجل .. إن مكسب الوجودي أن تـتَّخم النفس البشرية بشكٍّ كشَكِّ بسكال؛ ومن ثم فلا فرق بين إنكارٍ بوقاحة وبين إنكارٍ بمضغ الكلام وأنوثة العصر ، وتلك نحلة تفرد بها المغضوب عليهم من اليهود الملاعين ومن ضاهاهم في لَبْسِ الحق بالباطل؛ فقد لبَّسوا الإيمان بالكفر قديماً ولا يزالون، ولبَّسوا العلم والدين بالخرافة الآن، وأغرقوا الكرة الأرضية بمئات الفلسفات التي تتكحل بالعلم وهي في دمامة القرد والخنزير والسعلاة .

قال **أبوعبدالرحمن** : وفي رسالةٍ لجارودي طبعها رياض الريِّس : أن الطرق كلها توصِّل إلى روما، وأن كل تعبُّدٍ لله يُقصد به وجهُ الله فهو طريق صحيح موصِّل إلى رضوان الله مُنجٍ من عذابه.. وهذه هي ديانة جمال الدين الأفغاني من قبله في كلامه عن أديان الشرق.. ومن هذا المنطلَق طُرحتْ عليَّ هذه القضية كثيراً : هل يحاسب الله من لم تبلغه الدعوة في أطراف المعمورة ؟! .

ومن المعلوم أن جمهور السلف يُحيلون دعوى أن الرسالة لم تبلغ أحداً ؛ لهذا يرون أن الخلق الآن محاسبون إن لم يتبعوا الإسلام مع إيمانهم بأن الله لا يُحاسِب أحداً إلا ببلوغ الدعوة، ولكنهم كما أسلفت يحيلون دعوى عدم البلوغ .. وهم مع هذا يأبون وينفون دعوى المعتزلة : أن الإنسان محاسب على عقله مكلف باقتضائه .. وهذه الدعوى يلزم منها أن الخلائق محاسبون إن ضلوا عن الدين؛ لإهمالهم مقتضى العقل .

قال **أبوعبدالرحمن** : وهذه مسألة شائكة ، والخلاف فيها صعب دقيق ؛ لهذا أدلي بدلوي قارناً بحول الله وقوته التحري العلمي والورع ، وما توفيقي إلا بالله سبحانه وتعالى .. والمدخل إلى حلِّ هذه المعضلة؛ أنني لست من مذهب الاعتزال في شيء، ولا أدين لله بمذهب المعتزلة على إطلاقه، ولكنني شديد الإيمان ببرهانين : أحدهما شرعي ، والآخر حسي بالعقل .. وهما برهانان على أن مذاهب أهل القبلة ليست صواباً بإطلاق، ولكن عند كل طائفة قليل من الحق، وإنما ميزة السلف ـ فيما لم يُجمعوا عليه ـ أن ما يذهب إليه جمهورهم مغمورٌ فيه الخطأ بكثرة الحق؛ لأنهم سلكوا في الاجتهاد السبيل الشرعي المأمون، ولم يضمن الله لهم سبحانه الإصابة، وإنما ضمن لهم صواب اجتهادهم لا إصابة مراد ربهم، ولهذا رحمهم في الخطإ بالأجر والعذر، ولم تكن هذه الميزة للفرق الأخرى؛ لأنهم سلكوا سبل اجتهادٍ غير مشروعة .. أما البرهان الشرعي على هذه الدعوى فهو قوله سبحانه وتعالى : ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا ۚ فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ

ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٠﴾ ۞ مُنِيبِينَ إِلَيْهِ وَٱتَّقُوهُ وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَلَا تَكُونُوا۟ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿٣١﴾ مِنَ ٱلَّذِينَ فَرَّقُوا۟ دِينَهُمْ وَكَانُوا۟ شِيَعًا كُلُّ حِزْبٍۭ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ ﴿٣٢﴾ ﴾ [سورة الروم] .. قال **أبوعبدالرحمن** : وجه الدلالة من الآيات الكريمات أنها في المشركين، والله ينهى أمة محمد ﷺ أن تُفرِّق دينها الصحيح؛ فتُشْبِهَ المشركين بدخول الباطل في دينهم إذ فرَّقوه؛ لأنهم بعد التفريق سيُكمِّلون النقصَ بالباطل لا محالة مع وجود شيء من الحق في مذاهبهم يقلُّ أو يكثر حسب صواب أو فساد مسلكهم الاجتهادي .

وأما البرهان الحسي : فهو أنك إذا استقرأت المذاهب لا تجد مذهباً خالصاً للحق أو الباطل، والخير أو الشر، والجمال أو القبح.. وإنما المسألة مسألة كمٍّ وكيف.. أما الكمُّ فهو غلبة أو قلة أحد الجانبين، وأما الكيف فهو خطــورة المسألة الجزئيــة في المذهــب؛ لكونهــا مخرجة من الملة، أو موجبة للفسق؛ ولهذا يُوصف المذهب بالفساد في جملته ولا سيما إن كثرت المسائل الجزئية المبنية على مسألتهم تلك التي غدت أصلاً .. ولقد نوَّر الله بصيرة شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله تعالى؛ إذ أصبح يُوازن بين المذاهب من ناحية القرب أو البعد عـن الإسـلام عقيــدة وشريعــة؛ لأن مسألة خلوص مذهب ما للحق أو الباطل متعذِّرة .. وهو وإن لم يصرِّح بذلك فمذهبه في الموازنة دليل على إيمانه بهذه القاعدة، وإلا فما جدوى الموازنة ؟! .

قال **أبوعبدالرحمن** : وإذِ اتضح الحق في هذه المسألة فإنني أرى المعتزلة

مصيبين في دعوى محاسبة الناس على عقولهم، وأنهم مكلفون بها.. ولكن ليس هذا على الإطلاق، بل بالتقييد؛ فالتكليف بالعقل لا يعني تأسيس الدين وتفصيل شرائعه بالعقل، وإنما يعني تكليفه بالاجتهاد في معرفة الحق لا في تأسيسه.. ولا سبيل للعقل إلى معرفة الشرع تفصيلاً إلا عن طريق الخبر الشرعي.. وسبيل المعرفة ههنا تحقيق صحة الثبوت والدلالة ثم الاستسلام للشرع بعد صحتهما.. وما أحاله العقل ـ وهذا بخلاف ما لم يعرفه، أو استشكله ـ فمحال أن يكون خبراً شرعياً صحيح الدلالة والثبوت؛ لأن البراهين لا تتعارض في فطرة الله الكونية وقضائه الشرعي .

والعقل ـ بغياب الخبر الشرعي التفصيلي ـ يهتدي ويعرف الحق إجمالاً : من جهةِ حتميةِ خالقٍ واحدٍ مقدَّس يستحيل تفسير وجوده بغير قَيُّوميَّته، ومن جهة الإيمان بضرورات التاريخ والمشاهدات الحسية لمأثور القرون عن وجود أنبياء ورسل وكتب وعقوبات .. والبرهان على أن العقل محاسب مكلف فيما يعرفه من الأصول إجمالاً، وفي تمحيص الأخبار الشرعية دلالةً وثبوتاً قولُ الله سبحانه وتعالى : ﴿ وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ ۚ إِنَّ ٱلسَّمْعَ وَٱلْبَصَرَ وَٱلْفُؤَادَ كُلُّ أُولَٰٓئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْـُٔولًا﴾ [سورة الإسراء / ٣٦] .

قال **أبوعبدالرحمن** : كلَّف الله العقولَ والحواس بنصوص كثيرة كما سأذكر أمثلة منها إن شاء الله، ولكن الخطاب للقلب ـ وهو اللب والفؤاد ـ ، وهكذا مخاطبة الصدور التي هي مقر القلوب أكثر ؛ لأنه لا أثر للمعقول في نفس الإنسان حتى يصير عقيدة في قلبه يطمئن إليها، وينفعل من أجلها.. والخطاب ههنا نهي عن القَفْوِ بغير علم؛ فهو أمر بالنظر بعلم، والله جعل

للعقل شواهد من الحس وفطرة العقل (والتاريخ من الحس السمعي، والآثار من الشواهد البصرية) على وحدانية الله وهيمنته؛ فعقل الإنسان مكلف بأن ينظر في آيات الله الكونية، ويبحث عن حقائق الأديان حتى يجد دين الوحدانية والتقديس بمقتضى ضرورات فكره .. ومن البرهان على ذلك أيضاً قول الله تعالى : ﴿ٱلَّذِينَ يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ قِيَـٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَـٰذَا بَـٰطِلًا سُبْحَـٰنَكَ فَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ﴾ [سورة آل عمران /١٩١]، وقوله سبحانه : ﴿إِنَّ شَرَّ ٱلدَّوَآبِّ عِندَ ٱللَّهِ ٱلصُّمُّ ٱلْبُكْمُ ٱلَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ﴾ [سورة الأنفال / ٢٢]، وقوله سبحانه عن آثار الهالكين : ﴿ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَـٰتٍ لِّلْمُتَوَسِّمِينَ ﴿٧٥﴾ وَإِنَّهَا لَبِسَبِيلٍ مُّقِيمٍ ﴿٧٦﴾ ﴾ [سورة الحجر]، وقوله سبحانه : ﴿أَفَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ كَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّنَ ٱلْقُرُونِ يَمْشُونَ فِى مَسَـٰكِنِهِمْ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَـٰتٍ لِّأُولِى ٱلنُّهَىٰ﴾ [سورة طه /١٢٨]..، وقوله سبحانه مُبكِّتاً من لم ينتفع بعقله وحواسه : ﴿فَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَـٰهَا وَهِىَ ظَالِمَةٌ فَهِىَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا وَبِئْرٍ مُّعَطَّلَةٍ وَقَصْرٍ مَّشِيدٍ ﴿٤٥﴾ أَفَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَآ أَوْ ءَاذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى ٱلْأَبْصَـٰرُ وَلَـٰكِن تَعْمَى ٱلْقُلُوبُ ٱلَّتِى فِى ٱلصُّدُورِ ﴿٤٦﴾ ﴾ [سورة الحج]، ومدح الله سبحانه في الآية الثامنة عشرة من سورة الزمر من يستمعون القول فيتبعون أحسنه .

قال أبوعبدالرحمن : ههنا أمور :

أولها : أنه لا علاقة لهذه المسألة بمسألة إيجاب النظر على المؤمن العامي؛

لأن إيمانه بهداية الله التوفيقية أغناه عن إيجاب النظر، وإنما حُكْم النظر في حقه حُكْمُ العلم وطلبه، وحكم ما يسع فيه الجهل وما لا يسع .

وثانيها : أن الله لن يحاسب من لم تبلغه الدعوة على أداء فروع الدين، ولكنه يحاسب عقله إذا لم يهتدِ إلى الإيمان المجمل مع صدق التحرِّي والبراءة من الهوى والمكابرة .

وثالثها : كل من حكم الله بكفره من أهل حقبة ما فقد قام في علم الله من واقع حاله أنه غير معذور .

ورابعها : أن الحكم بأن فلاناً أو أهل تلك البلدة أو تلك الأمة لم يبلغها الإسلام فتوى بواقعةٍ وليس فتوى بحكم شرعي.. والحكم بهذه الواقعة يحتاج إلى خبرة مؤرِّخين وأصحاب آثار، وبعد صحة الواقعة تبقى المسؤولية مرتفعة فيما يتعلق بفروع الشريعة ، ويظل العقل ، والطلب والتحرِّي بالعقل والحس، وصدق الطلب ونزاهته بالعزوف عن الهوى والعصبية والمكابرة.. تظل هذه المواهب وذلك السلوك تحت المسؤولية الشرعية .

وخامسها : أن من لم تبلغه الدعوة معذور في فروع الشريعة كالعالم ــ ودَعْكَ من العاميِّ ــ لا يبلغه البرهان في مسألة فرعية؛ فهو معذور في إسقاط مقتضى ذلك البرهان الجزئي؛ لأن البرهان لم يبلغه مع طلبه وتحرِّيه .

وسادسها : أنَّ عُمْرَ رسول الله ﷺ منذ بُعِث ثلاثة وعشرون عاماً منها ثلاثة عشر عاماً بمكة، وأحكام الشريعة الفرعية قليلة جداً في ذلك الوقت الأكثر من بعثته، وإنما طالب الله الخلق ـ ولا سيما من ليس له كتاب من

العرب ـ ، وبَكَّتَ الكفارَ وضلَّلهم لتركهم ما توجبه حواسهم وعقولهم من الإيمان بالله ووحدانيته وقُدسيته وصدق رسوله؛ لأنه نصب لهم الآيات الكونية في الأنفس والآفاق .. ولَمَّا كلَّفهم بالفروع نصب لهم البراهين عليها بالخبر الشرعي في المدة الأقل من البعثة، وهي السنوات العشر بعد الهجرة .

وسابعها : أن الله حكم بإيمان قوم زمن الفترة بعضهم ليس معه من الفروع ما يتديَّن به، وبعضهم ذو دين دخله التحريف والتبديل؛ فقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱلَّذِينَ هَادُواْ وَٱلنَّصَٰرَىٰ وَٱلصَّٰبِـِٔينَ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْأَخِرِ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ [سورة البقرة/ ٦٢].. قال **أبوعبدالرحمن** : من هؤلاء صابئة العرب الذين ليس عندهم كتاب من دين جدَّيهم إبراهيم وإسماعيل عليهما وعلى نبينا أفضل الصلاة والسلام، وليس عندهم دين محرَّر من الدخيل؛ فيتَّبعون أيَّ نبي ؛ إذ ذلك جائز قبل نسخ الأديان .. وعندهم مأثور حسِّي مشهور عن قومٍ معذَّبين لكفرهم؛ لأن آثارهم بسبيل مقيم يمرون عليها مصبحين.. وعندهم أثرٌ حسِّيٌّ خبري مسموع من تواتر الخبر بانطواء الزمان على أنبياء ورسل وكتب، ولكنهم لا يعرفون تفصيل ذلك كما في قوله تعالى ـــ بعد قصصه الكريم عن المعالم البارزة من دعوة نوح عليه السلام التي يقشعر لها الجلد ويتفتَّتُ لها القلبُ خشوعاً ـــ : ﴿تِلْكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلْغَيْبِ نُوحِيهَآ إِلَيْكَ مَا كُنتَ تَعْلَمُهَآ أَنتَ وَلَا قَوْمُكَ مِن قَبْلِ هَٰذَا فَٱصْبِرْ إِنَّ ٱلْعَٰقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ﴾

[سورة هود / ٤٩].. فهؤلاء الصابئون أعلنوا أن الله واحد، ورفضوا عبادة الأوثان، ولم يعبدوا الله بأعمال وأقوال معيَّنة؛ لأن العقل لا يملك تشريع ذلك، وقَبِل الله منهم هذا وحكم بإيمانهم، ولم يجعل مصيرهم مصير عبدة الأوثان والدهريين .. والسرُّ في ذلك أن الحس والقلب والعقل جوارح مسؤولة، وهم تحملوا مسؤولية العقل والحس، فأعملوا العقل ؛ فرفضوا الكفر، وأخذوا شواهده على الوحدانية.. كما أنهم تحملوا مسؤولية الحس فساحوا في الأرض، وبحثوا في الأديان.. والعمل الصالح الذي فعلوه ليس عن شرع محفوظ مفصَّل، لكنـه من الفضـائل العقليـة بنـيَّة الوحدانية، والإيمان بالجزاء تفصيلاً.. وهكذا أهل الكتاب رفض موحدوهم ما دخل في الدين مما يحيله العقل من وثنية في حق الله سبحانه، وشناعات في حق رسله وملائكته عليهم السلام، ومحَّصوا بعقولهم، وبالأصول العامة من دينهم دخيل الفروع العملية، والوشب في النصوص الخبرية؛ فكانوا في حكم من اجتهد ولم يَألُ .

وثامنها : أنه بالعودة إلى ما ذكرتُه من نصوص قليلة وما سألحن إليه من نصوص كثيرة ، وأنه باستحضار ملاحن الخطاب العربي في معرض إيراد الشيء ـ بصيغة الأمر، وبصيغة الحضِّ على فعله والترغيب فيه، وبصيغة الإنكار على من أهمله والتبكيت له ـ ما يقتضي أن العقل مسؤول عن الإيمان بالله وتوحيده ، وأن الحس مسؤول عن الانتفاع بالآثار المنظورة والأخبار المسموعة؛ ففي سورة النحل مثلاً ذكر الله إحياء الأرض بالمطر

وجعل فيه آية للسمع (ولا فائدة من سماع الآيات الكونية إلا بحضور العقل) ، ثم ذكــر الله منّته وقدرته في خلق اللبن الخالص، والرزق الحسن من الثمار ؛ فجعله آية للعقل، وذكر قدرة الله في تصريف النحل، ومنّته في شرابـه ؛ فجعـله عمـلاً للعقل في التفكير .. واستمر القصص الكريم عن آلاء مصحوبة بتبكيت الجحد والكفر، وتفاوت من يعلم ومن لا يعلم ممن عطّل عقله وحواسه، ثم ذكر سبحانه المواهب البشرية فيصلاً بين العلم والجهل والشكر والإيمان والإسلام والكفر؛ فقال تعالى : ﴿ وَٱللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّنۢ بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْـًٔا وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ ۙ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾ [سورة النحل / ٧٨] إلى قولـه: ﴿وَأَكْثَرُهُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ [سورة النحل/ ٨٣] .. وهكذا آيات الله الكونية في سور الروم وياسين والأنعام وغيرها .

وقولـي : « ولا فائدة من السمع إلا بحضور العقل » ليس من كيسي، بل هو النتيجة الضرورية المتعيِّنة من لحن الخطاب العربي، ألم تر قولـه تعالى : ﴿ٱلَّذِينَ يَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا وَهُم بِٱلْءَاخِرَةِ هُمْ كَٰفِرُونَ ﴿١٩﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ لَمْ يَكُونُوا۟ مُعْجِزِينَ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا كَانَ لَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِنْ أَوْلِيَآءَ ۘ يُضَٰعَفُ لَهُمُ ٱلْعَذَابُ ۚ مَا كَانُوا۟ يَسْتَطِيعُونَ ٱلسَّمْعَ وَمَا كَانُوا۟ يُبْصِرُونَ ﴿٢٠﴾ ﴾ [سورة هود] . قال **أبوعبدالرحمن** : ليس المراد نفي السمـع، والإبصار في الآخرة؛ فهم يسمعون في النار ويبصرون ويتكلمون ويعترفون ويختصمون، وإنما المراد تعطيل السمع والبصر في الدنيا؛ لأن ذلك أدّاهم إلى الكفر.. والله

سبحانه خالقهم لا يحاسبهم على عدم استطاعة السمع والبصر؛ فعدْلُ الله وحكمته ورحمته كل ذلك يأبى محاسبتهم على ما لا يستطيعـون.. وإنما المراد تعطيلهم السمع والبصر بإرادتهم، وانغماسهم في الهوى؛ فأصبحوا بهذه الحرية المعطَّلة غير مستطيعين.. وربما كان فيهم من هو أحدَّ بصراً وأدقَّ سمعاً من المؤمنين، ولكنهم عطَّلوها أن تكون موصِّلة لهم إلى الحق .

ولستُ بهذه الآيات الكريمات أحتج على من لم تبلغه الدعوة بآيات من الدعوة بلغتني ولم تَبْلُغْه ، وإنما أحتج بالآيات الخبرية الشرعية لغرضين :

أولهما : الاحتجاج بالآيات الكونية ، وأنها موصلـــة إلى الوحـــدانية .. وجاءت الآيات الشرعية الخبرية مصدقة ذلك؛ فكان في الآيات الكونية ـ وإن أُوردت مجردة من عبارة الخبر الشرعي المحتجِّ به ـ برهان على أن العقل والحس موصِّلان إلى الإيمان ، مانعان من الكفر، داعيان إلى البحث في الأديان.

وثانيهما : البرهان من ديننا على أنه لا أحد يُعذر في الكفر وإن لم يكن عنده كتاب من الله بدين مفصَّل خالص من الدخيل تحريفاً أو تبديلاً ، وغاية ما يحتج به من يحتمل تصوُّر عدم بلوغِ الدعوة الآياتُ الكريمات من مثل قولـه تعالى : ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا﴾ [سورة الإسراء/ ١٥]، وقولـه تعالى : ﴿ وَمَا كَانَ رَبُّكَ مُهْلِكَ ٱلْقُرَىٰ حَتَّىٰ يَبْعَثَ فِىٓ أُمِّهَا رَسُولًا ﴾ [سورة القصص / ٥٩] .

قال **أبوعبدالرحمن** : هذا حجة على بلوغ الدعوة؛ لأن الله سبحانه ضمن

ما استثناه بقدره الكوني وخبره الشرعي؛ فأرسل إلى كل أمة رسولاً .. قال تعالى : ﴿وَإِن مِّنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ﴾ [سورة فاطر/ ٢٤] ، وقال تعالى : ﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولٌ﴾ [سورة يونس /٤٧] .. وعندما تواترت الرسل على الأمم جعل ملتها واحدة وهي الوحدانية؛ فقال تعالى : ﴿ أَمِ اتَّخَذُوا مِن دُونِهِ آلِهَةً قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ هَذَا ذِكْرُ مَن مَّعِيَ وَذِكْرُ مَن قَبْلِي بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ الْحَقَّ فَهُم مُّعْرِضُونَ ﴿٢٤﴾ وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ ﴿٢٥﴾ ﴾ [سورة الأنبياء / ٢٤-٢٥] .

قال **أبوعبدالرحمن** : في الآيتين الكريمتين دلالتان :

أولاهما : أن الوحدانية دين غمر الله به الأمم، فهي ذكره عليه الصلاة والسـلام وذكر من قبلـه ، وهي شهادة التوحيد الموحـاة لكل رسول، ومن المستبعد أن تغيب هذه الشهادة عن توارث الأمم .

وثانيهما : أن هذه الشهادة مطلبها من العقل والحس بآيات الله الكونية في الأنفس والآفـاق ؛ لأن الله طالب الجاحدين بالبرهان ، وبرهانهم خـارج الشرع ؛ لأنهم غـير مؤمنين به ، ولا مجال لهم إلى البرهـان إلا من الحس الخارجي وحواسهم هم بحضور عقولهم، وهم في حكم من لا يعلم بإرادتهم الحرة، لأنهم لم يُظهروا البرهان ، ولم يطلبوه ، وأعرضوا عن محصّلاته في أنفسهم وفي الآفاق .

والأمر التاسع : أنه ببرهـان الشـرع ثبت أن الوحـدانية فطـرة ووعي وضرورة كما أسلفت من سورة الروم، وكما في قولـه تعالى : ﴿ وَإِذَا مَسَّكُمُ

ٱلضُّرُّ فِي ٱلْبَحْرِ ضَلَّ مَن تَدْعُونَ إِلَّآ إِيَّاهُۖ فَلَمَّا نَجَّىٰكُمْ إِلَى ٱلْبَرِّ أَعْرَضْتُمْۚ وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ كَفُورًا﴾ [سورة الإسراء / ٦٧]؛ فالتدين فطرة في النفوس، والبحث عن الدين الصحيح ضرورة إذا طرأ على الفطرة ما يُغيِّرها؛ لأن الجائع لا ينام، ومن طرأ عليه الشك فلا قرار له إلا بيقين يحصل عليه، ولا يقين إلا من العقل والحس كما أسلفتُ ؛ ولهذا كانت أول دعوة الرسل المطالبة بالوحدانية، ولا يطلبون منهم شيئاً من الشرائع إلا بعد الإخلاص في الوحدانية ،وهم ـ إذا جاءوا على فترة من الرسل ـ لا يحتجون في البداية عليهم بدين حاضر لديهم قد بلغهم ، وإنما يحتجون عليهم بالعقل والحس في إثبات مطلب الوحدانية ؛ فصح أنهم محاسبون على العقل والحس في إثبات الإيمان إجمالاً.. ألا ترى في سورة الروم : أن الله بكَّتَ الكفَّارَ بالغفلة عن الآخرة ؛ لأن لديهم من العقل والحس ما يبعثهم إلى البحث عن المصير بعد الموت، ولكنها الغفلة.. ثم أراد سبحانه انتزاعهم من الغفلة بالتفكر في السماوات والأرض، والاعتبار بالتاريخ مشاهدة وسماعاً بالسَّيْر في الأرض ، ثم بَهَتَهُم بالآيات الكونية العقلية الحسية في إخراج الحي من الميت، وإرجاع الإنسان إلى أصله من التراب ، والعبرة بما بين الزوجين ، وبالاختلاف في الألسن والألوان والمنام والتقلب في الأرض، وآيات الله في البرق والمطر، ولفت النظر إلى برهان العناية والقصد في قيام نظام السماوات والأرض، والاستدلال بالأعظم على الأدنى من إعادة الخلق، وأكَّد سبحانه أن الصارف عن هذه البراهين اتباعُ الهوى، ثم احتج على المقرِّين بالله المشركين

به بما يدمغهم عقــلاً وحسّــاً .. وتستمر الســورة الكريمة في سرد آيات الله الكونية في الأنفس والآفاق من مثل قولـه تعالى : ﴿ ۞ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن ضَعْفٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنۢ بَعْدِ ضَعْفٍ قُوَّةً ثُمَّ جَعَلَ مِنۢ بَعْدِ قُوَّةٍ ضَعْفًا وَشَيْبَةً يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ وَهُوَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْقَدِيرُ﴾ [سورة الروم / ٥٤] ؛ فكل هذه حالات يشهدونها من أنفسهم، ولا يستطيعــون تفسيرها بغير تدبير خالق واحد، عليم واحد، قدير واحد سبحانه وتعالى .. وأكبر برهان على مسؤولية العقل والسمع في السورة الكرية قولـه تعالى : ﴿ فَإِنَّكَ لَا تُسْمِعُ ٱلْمَوْتَىٰ وَلَا تُسْمِعُ ٱلصُّمَّ ٱلدُّعَآءَ إِذَا وَلَّوْا۟ مُدْبِرِينَ ﴿٥٢﴾ وَمَآ أَنتَ بِهَٰدِ ٱلْعُمْىِ عَن ضَلَٰلَتِهِمْ إِن تُسْمِعُ إِلَّا مَن يُؤْمِنُ بِـَٔايَٰتِنَا فَهُم مُّسْلِمُونَ ﴿٥٣﴾ ﴾ [سورة الروم / ٥٢-٥٣].

قال **أبوعبدالرحمن**: هم أحياء يسمعون ويبصرون، ولكنهم اختاروا موت القلوب وتعطيل العقل والحس بالإدبار عن سماع الحق بعد بلوغ الدعوة، والإعراض عن محصّلات العلم قبــل الدعــوة؛ فكانوا أمــواتاً صمّاً عمياً بإرادتهم الحرة؛ إذن العقل مطالَبٌ بالإيمان إجمالاً بآيات الله الكونية قبل مجيء الآيات الشرعية .

قال **أبوعبدالرحمن** : وتنازُلُنا عن ثوابت العقل وإيجابياته تنازل عن حقائق المعتقَد وثوابت السلوك ؛ لأن العقل كما قلت شرط التكليف ، وإنما يدعو الله العقلاء إل فهم دينه والتفكر في مخلوقاته .

وتأتي الضربات من فلسفات المِلل والنِّحل التي تودُّ لو نكفر حينما تجعل العقل مذهب فئة من البشر، ثم تحجِّم تلك الفئة، مع أن العقل منحة الله

المشاعة بين البشر .

قال **أبوعبدالرحمن** : ومن سنة الله أن لا يعرف الإنسانُ بغير حواسه؛ فهي مُحَصِّلات المعارف ونوافذ العقل ؛ فما يراه النائم من الرُّؤى لا يعقله إلا بحسه، وما يُلْهَمُهُ إياه كشفاً وتكرمة لا يكون بغير حسه، وعند تكشُّف الحجب عند الاحتضار لا تكون المعرفة إلا بحس حيث يكون البصر حديداً، وإنما الدين مصدر للعلم بما لم يُحَسَّ في الدنيا حساً بشرياً مشتركاً، ولكن هذا العلم يكون عن طريق العلم الحسي علم وجود، أو علم وصف دون تكييف .

وهكذا العلم أيضاً قانونه الانطلاق من العلم الحسي إلى معرفة ما لم يُحسَّ بعد، وإنما يَدَّعي على العلم غير ذلك المخربون الذين يُلَفِّقُون من محارات الدين ومحالات الفكر ومشتبهات العلم ما يحصرون به الإنسان السويَّ في دائرة معارف الحيوان غير الناطق حتى لا يَخْفِق قلبه إلى أشواق ربه.

ومن الأكاذيب التي نُسبت إلى رسول الله ﷺ حديث : « أول ما خلق الله العقل، فقال له : أقبل؟ .. فأقبل ، ثم قال له : أدبر ؟.. فأدْبَرَ ، فقال : وعزتي ما خلقت خلقاً أكرم عليَّ منك!.. فبك آخذ، وبك أعطي، وبك الثواب والعقاب » .

أدرج هذا الحديث داوود بن المحبر في كتابه « العقل »، وداوود وضَّاع ، وقد نقل شيخ الإسلام ابن تيمية عن أبي حاتم البستي، وأبي الحسن الدارقطني، وأبي الفرج ابن الجوزي أن الأحاديث المروية عن النبي ﷺ في العقل لا أصل لشيء منها ، وليس في رواتها ثقة يُعتمد ، وهذا الحديث أسنده إلى رسول الله ﷺ الفضل بن عيسى الرقاشي وهو قاص كذَّاب، وفي

السند أيضاً سيف بن محمد ابن أخت سفيان الثوري وهو كذاب. وعلى أي حال فليس له إسناد صحيح (١١١).

قال أبوعبدالرحمن : وإذ لم يصح عن رسول الله ﷺ فهو لم يقله بألفاظه بيقين.. وأما المعنى فكل معنى في هذا اللفظ لا سند له إلا هذا الحديث فهو باطل ككون العقل أول مخلوقات الله، وصيغة الحوار، وككونه أكرم الخلق على الله .

وبقيتْ معانٍ صحيحة ؛ لأنها ثابتة بنصوص أخرى، فالعقل عظيم المسؤولية عند الله، وهو شرط التكليف، وبه يكون الثواب والعقاب.. والطوائف الضالة اتخذت من هذا الحديث الموضوع مطية لأهوائها .. قال شيخ الإسلام ابن تيمية : « ثم إنه من العجب أن هذا الحديث قد جعله عمدتهم في أصول الدين والمعرفة والتحقيق مَن يروم الجمع بين الشريعة الإلهية والفلسفة اليونانية المشّائية » (١١٢) .

قال أبوعبدالرحمن : هذا هو شأن هذا الحديث وقصته، وهو من العتمات والنفايات في تراث المسلمين يُقمِّشه من يلجون بَهْوَ تاريخنا الذهبي بنظرِ مفتشي النظافة وفهمهم من أمثال أدونيس والقصيمي والجابري وأركون .. والأخير تحدث عن مفهوم العقل الإسلامي في كتابه تاريخ الفكر العربي الإسلامي، وأحكم حيل المغالطة.. ومهما أُتقنت المغالطة فحبل الكذب قصير، وَحِيَله واهنة ؛ فقد زعم أولاً أن مدلول هذا الحديث قد عمَّ وانتشر في الإسلام [لعله يريد المسلمين!!]، وزعم ثانياً أن مدلوله ضرورة

---

(١١١) انظر بغية المرتاد لابن تيمية ص١٧١-١٧٩ .

(١١٢) بغية المرتاد ص١٧١ .

الإيمان بوجود أصل إلهي للعقل البشري ، وزعم ثالثاً أن نتيجة ذلك المدلول أن يكون العقـل خاضعاً ومتعـالياً في آن واحـد.. ومعنـى تعاليـه خضوعه لتحديدات كلام الله المعنوية وإكراهاته معاً.. هكذا يقول الدكتور محمد أركون المتحرر من عبودية الشرع وهو عبدُ القضاء الكوني ، وتلك عبودية الذل والصَّغَار .

ومعنى الإكراهات حسب مدلول سياق أركون من أوله إلى آخره : أن هذا العقل البشري (الملكة) الذي يلاحظ ويتذكر ويتخيل ويتصور ويفهم ويميز ويحكم مُكْرَهٌ بإكراه رباني بأخذ النص الشرعي، وبتعطيل ملكاته.

والأصل الإلهي للعقل فسَّره أركون بنص لغوي محدد تماماً هو القرآن، ثم جاء الشافعي وأضاف إليه السنة(١١٣) .

قال **أبوعبدالرحمن** : هذا الموضـوع لا يحتاج إلى ثقل فكري يجلو عن البرهان، ويدفع الشبهة، ويفرق بين الحقيقة والدعوى.. وإنما المجال مجال صبر وحسبة يفضح المغالطة، ويخلِّص الذهب من الزيف ، وَيَرُدُّ الأرقام إلى خاناتها الصحيحة .

وكل ما لخصته من كلام أركون نسق من المغالطات، ومثل هذا النسـق لا يأتي مصادفة وعن حسن نية، وإنما يأتي عن تعمُّد وتخطيط.. والتخطيط للمغالطة في أمور حيوية تتعلق بمصير الأمة وكيانها دليل تآمر وبرمجة ، وإليكم المغالطات في تلك النصوص القصيرة المشرذمة :

---

(١١٣) تاريخ الفكر العربي الإسلامي لأركون ص٦٥ .

المغالطة الأولى : دعــواه عن الحديث الموضــوع الذي أسلفته : أنه انتشر مدلوله ـ انتشار استسلام لمعناه ـ في المسلمين .

قال **أبوعبدالرحمن** : كذب عبدُ الكاثوليكيـة، وإنما انتشر بين المسلمين أنه حديث موضوع.. وعند دراسة الوضع والوضاعين اشتهر بين المسلمين أنه نموذج خائب للوضع وسرقة الإسناد وتركيب المتن، واشتهر بين المسلمين أن بعض الفرق الضالة جعله عمدة في الجمع بين الشريعة وركام الفلسفات .

والمغالطة الثانية : أنه جعل ضــرورة الإيمان بأصــل إلهي للعقل البشري مدلولاً لذلك الحديث الموضوع، وذلك يعني قصر برهان هذه الدعوى الصحيحة على حديث باطل.

قال **أبوعبدالرحمن** : والحقيقــة التي يؤمــن بها أهــل الإسـلام أن للعقل البشـري أصلاً إلهياً، وهو أن العقـل مخلوق، وأن خالقه سبحــانه هو منزِّل الشرع ، وأن شرع الخالـقِ المنزَّلَ هدايـةٌ لخلقـه ، وأن الله خلق العقل وفق قوانين وفطرة ، وأن مذخوره من المعرفة هو مصدر أحكامه، وأن ما لا يعلمه يكل حقيقة أمره إلى من يعلمه، ويقبل الخبر الصحيح الثبوت إذا صدر عن معصوم ؛ لأن الشرع خبر من خلق الحقيقة، وأن العقل وسيلة من يحاول اكتشاف الحقيقة وهو لم يخلقها.

والمغالطة الثالثة : دعــواه أن تعــالِي النص الإلــهي جعــل قَدَرَ العقل الخضوع.. وهذا الإطلاق يعني أن النص الرباني لا يقيم للعقل وزناً .. وهذا افتيات على واقع النص الذي بلَّغه رسول الله ﷺ خلال ثلاثة

وعشرين عاماً منها ثلاثة عشر عاماً تقريباً لتقرير العقيدة في الألوهية والنبوة وأمور الغيب بحجج عقلية وبراهين حسية، وإنما جاء الاستسلام للنص الرباني ـ بمدلول كلمة إسلام ـ في عشر سنوات بعد أن قام البرهان على أن منزِّل الشرع هو خالق العقل والحقائق ، وأن أمره على العدل ، وأن خبره على الصدق؛ فالإيمان البرهاني سابق للإسلام التطبيقي ، ولا يتحمل المخلوق مسؤوليته أمام ربه في الآخرة ، وأمام أحكام شرع ربه في الدنيا إلا بعد كمال أهليته، ومن الأهلية سلامة العقل، وعندما يتدخَّل النص في العقل فإنما يردُّه إلى فطرته بحيث يقول الصدق ، ويُصَدِّق من جاء بالصدق ، ولا يقفو ما ليس له به علم، ولا يعبِّر اللسان إلا بمقدار ما عند العقل من يقين .. وما لا سبيل للعقل إلى معرفته معرفة تصوُّر حسي فليس له حق في أن يُكيِّفه ويمثله، وليس له حق نفي وجوده إذا لم يقدر على تكييفه .

والعقل المسلم بعد هذا يتربَّى في حضانة شرع خالقه ؛ فيعلم أن عقله مخلوق محدود ذو فطرة وقانون ؛ وحينئذ يتعامل مع النص بعقل لا بخضوع مطلق ؛ فليس كل نص يَرِدُ إلى المسلم منسوباً إلى الشرع يكون عند المسلم شرعياً، بل للمسلم نظر عقلي في صحة ثبوت لفظه عن الشرع، وله نظر عقلي في صحة ثبوت مدلولـه .

وفي يقين المسلم ورجحانه غُنْية له عن أمور جعلها على الهامش ؛ لأنها في حيز الاحتمال ؛ لعدم قيام شواهد صحتها أو بطلانها كأخبار بني إسرائيل، وكالأحاديث الضعيفة غير الواهية ؛ فهي على التوقُّف حتى يقوم شاهدٌ يصحِّحها أو يحسِّنها ، أو يقوم شاهد يردُّها ؛ لكونها وَهْماً أو موضوعة .

والمغالطة الرابعة : أنه أطلق الأصل الإلهي للعقل البشري إطلاقاً يُفهم منه أن كل ما في عقل المسلم معطى شرعي، وهذا افتراء محض ، بل يطلق الأصل على أساس أن العقل خلق الله فهو معطى إلهي بحكمه الكوني، وللعقل وظيفة خُلقية، فهو معطى شرعي.. ثم للعقل مجال لكسب مزيد من العبقرية في الكشف والاختراع وتوليد المعارف وتحقيق الكسب والمهارة في الحرفة والإدارة ؛ فهذا كسب بشري لعقل خلقه الله لم يحجبه الشرع أو يُقلِّصه، وإنما تدخَّل في الوظيفة والغاية بأن يكون نتاج العقل في خدمة الأخلاق الفاضلة والمبادئ الخَيِّرة .

وقد يتبارى عقل المسلم وعقل عابد الوثن في العبقرية والمَلَكَة وتكثيف المعرفة، ولكن يظل الزكاء بجانب الذكاء في حق المسلم .

والمغالطة الخامسة : دعواه أن حُجِّيَّة السنة مما أضافه الشافعي إلى حُجِّيَّة القرآن.. وكأن اتباع السنة لم يرد مأموراً به في القرآن ، وكأن اتباع السنة مفصول عن وجدان المسلمين وممارساتهم في عهد رسول الله ﷺ وخلفائه وصحابته، وتلاميذهم، وتلاميذ تلاميذهم جيلاً بعد جيل إلى عهد الشافعي !! .

والمغالطة السادسة : تجريده القرآن والسنة من كل سُمُوٍّ، وحصرهما في أنهما مدلول لغوي فحسب .

قال **أبوعبدالرحمن** : الرقعة العربية كلها، والرقعة الإسلامية كلها (قبل انتثار عقد الخلافة الإسلامية) لا يوجد فيها على الأصعدة الرسمية والأجهزة الحكومية والمؤسسات العلمية أي طرح في السلوك أو التصور لا يكون منتسباً إلى الإسلام بنص أو إجماع أو اجتهاد أو دعوى.. وإذا تعددت

الطروحات واختلفت فليس أساس الترجيح أن هذا إسلامي أو غير إسلامي، وإنما مقياس الترجيح القرب من المراد الشرعي أو مطابقته، وقد يترجح المرجوح وفقاً لمذهب أهل الحل والعقد في البلد، ومذاهب أهل السنة متعـددة فقهاً، ومذاهـب أهل القبـلة متعددة تصـوراً .. أما اليوم فالرقعتان العربية والإسلامية صعيد لطروح إسلامية، ولطروح غير إسلامية أكثر وأشد غلبة.. حتى الطروح الإسلامية تُلْقَى من أطراف يوصف بعضها بأنه ذو منطلقات دينية غير خالصة، ومَنْ يوصف بأنه ذو منطلقات دينية خالصة ـ وَغُرَّتهم أهل السنة والجماعة ـ يوصف مذهبه بأنه يعترف للنص الديني بالقداسة والمطلقية، واستنتجوا من هذا الوصف الصحيح :

أ- أن لدى أهل تلك المنطلقات تصوراً محدداً للكون والمجتمع والفرد.

ب- أن ذلك التصور ذو طبيعة لاهوتية حيث يُشكِّل الكون دائرتين هما الدنيا والآخرة، وحيث يُشكِّل المجتمع مجالاً لتمظهر إرادة الله .

ج- أن الاختيار الفردي مجرد كسب؛ ومن ثم تنتفي السببية العقلانية وتحل محلها سببية لا تُغفل الرعاية الإلهية للكون والبشر .

د- النهاية دُونِيَّةُ الإنسان والعقل والحرية .

قال **أبوعبدالرحمن** : لخصت هذه العناصر، وفقطتـها ورقمتها من بحـث لا يزال بالآلة الكاتبة لمحمد أبوالقاسم حاج حمد بعنوان « الإشكالية المعرفية وعالمية الثقافة المعاصرة » قدمه في إحدى الندوات، وهذا نموذج لطروحات كثيرة نشطت في بلدان الغرب تتمظهر بحلية الفكر والاستقراء لكنها تحسن منطق الأغلوطة كما في النص السابق الذي ذكر التصور الصحيح لذوي

المنطلقات الدينية الخالصة، ثم رتب عليها نتائج كاذبة باطلة تنطلي على العامة ؛ لأن حيل المغالطة محكمة ؛ فمن ناحية الوصف لمذهب ذوي المنطلقات الفكرية نرى صحة الحكـم عليهم في اعترافه للنص الديني بالقداسة والمطلقيــة.. هذا صحيــح لا غبــار عليه، ولكن بالشروط التي يعتبرون بها النص دينياً، وبالمفهوم للمطلقية عندهم ؛ فإن أطلق النص الديني بغير شروطهم وقيودهم، وإن فسرت المطلقية بغير مفهومهم : فسينتج عن ذلك نتائج ليست من مذهبهم، ولا يضير حينئذ أن تكون النتائج باطلة، لأنها ليست من مذهبهم.

وشرط النص الديني عندهم أن يكون صادراً عن الله، وأن يكون المعنى المأخوذ منه مراداً لله بيقين أو رجحان.

ولإثبات صدور النص عن الله، ولإثبات نسبة المراد من الله قوانين علمية في علمي التفسير ومصطلح الحديث، وأصول الفقه، وفقه اللغة، وعلم البلاغة.. وهذه القوانين هي مرجع وأداة علماء الملة المحمدية عقيدة وشريعــة، وهذه القوانين ذات بناء فكري تمنع من دونية الإنسان وعقله وحريته.. والمعنى المعتبر للدونية أن تُعَطَّل قدرات الإنسان وإيجابيات فكره، وأما الاستعلاء بالعقل وقدرات الإنسان وحريته على قدرة خالق الكون، وعلى غيوب الله في كونه فالإنسان دونٌ ما في ذلك شك.. هو دون في قدراتــه، ومدارك عقلــه، وطموحات حريتـه ؛ وإذن فالخرافة ليست نصاً له تقديس ومطلقية عند ذوي المنطلقات الدينية الخالصة، وينفي الإسناد إلى الشرع ــ لفظاً أو معنى ــ ارتفاعُ المعقولية بيقين أو رجحان .

وأما مطلقية النص عند ذوي المنطلقات الدينية الخالصة فمعناها أن النص

إذا صح عن الشرع دلالة وثبوتاً على مرادٍ ما فهو حقيقة قطعية في دلالته على ذلك المراد، وأن ذلك المراد خبر خالق الأشياء العليم بحقيقة نفسه وحقائق مخلوقاته، ولا شيء في الكون يخرج عن مخلوقاته .

وكل علم من العلوم فيه حقائق مطلقة ، وهي من اكتشاف البشر ؛ فكيف لا تكون مرادات الشرع حقائق مطلقة وهي خبر الخالق العليم المنزَّه عن السهو والجهل والكذب وكل عيب؟.

وليس معنى المطلقية أن في النصوص الشرعية الخبر التفصيلي عن كل حقائق الوجود بحيث يستغني الإنسان عن معارف حواسه وعقله ومهاراته، بل ندب الله السمع والبصر والفؤاد للبحث والتفكر والاعتبار، وجعل سبحانه من سبل عمارة الكون الإنتاج البشري كشفاً واختراعاً مما لم يتكفل الشرع المطهر بتعليمنا إياه من أمور دنيانا كالصناعة والزراعة والطب .. إلخ .

ولله غيوب لم يُطْلع عليها أحداً ولن يطلع عليها أحداً من البشر ؛ فلا تكون المطلقية بمعنى احتواء النص الشرعي على تفصيل كل شيء في الوجود، وإنما تكفَّل الشرع ببيان ما يلزم البشر من معرفة مقاصد الدين التي يُبلِّغهم العملُ بها واعتقادُهم إياها الجنةَ ويزحزحهم عن النار .. وإنما تكفل الشرع ببيان توظيف سلوك الإنسان ؛ ليسعد في دنياه وآخرته، فإذا كان الشرع لم يُعَلِّم الإنسان صنع المدفع فهو لم يحجر عليــه، بل أمره بإعــداد القــوة، وكل تدبُّرٍ عقلي وعمل حسي يُنتج قوة فهو مأمور به ؛ فإذا صنع الفرد بحسه ومواهبه ومهاراته ـ بعد الله ـ المدفع والرشاش فدور الشرع توجيه السلوك في استعمال القوة والعدة .

قال **أبوعبدالرحمن** : وإذِ اتضح معنى مطلقية النص عند ذوي المنطلقات

الدينية الخالصة فستتضح المغالطة في دعوى أن تصور الكون محدَّد عند ذوي تلك المنطلقات، ووجه المغالطة أنهم استعملوا كلمة « محدَّد » وهم يريدون معنى محدود؛ لأن معنـى « محدود » هـو اللائق بدعواهم على ذوي تلك المنطلقات لانتفاء السببية العقـلانية ودونيـة الإنسان التي مر نقاشـي لها .. والفرق بين المحدَّد والمحدود أن التحديـد يكون للشيء الواحـد من أشياء ، وأن المحدود يكون للشيء ولحصر الأشياء ؛ فانكشفت مغالطتهم وتضليلهم وتلبيسهم على القراء : بأن معنى مطلقية النص عند ذوي المنطلقات الدينية الخالصة تعني احتواء الشرع على تفصيل الأمور الدينية والدنيوية بحيث يغني النص عن كل جهد بشري؛ ومن ثم يكون تصور الكون محدداً محدوداً بمعطيـات النصـوص الشرعيـة بحيـث لا يُحتاج إلى محصلات علم أخرى غير النصوص الشرعية؛ ومن ثم تنتفي من دنيا ذوي المنطلقات الشرعية الخالصة كل معاني السببية العقلية، ويعيشون دونية إنسانية؛ فهذه الدعاوى معروف أنها مجرد كذب وافتراء بمجرد العلم بمعنى كون النص شرعياً، ومعنى كونه مطلقاً، ومعنى أن التصورات محددة بمقتضاه، وذلك في مذهب ذوي المنطلقات الدينية الخالصة ، وقد مر معنى كون النص شرعياً، ومعنى كونه مطلقاً، ويبقى الآن تبيان معنى التصور المحدَّد .

قال **أبوعبدالرحمن** : المحدد المميز المحصور الذي لا يختلط بغيره، وهكذا معنى المحدود إلا أنه يُعَلَّق به دلالة أدبية استعمالية، وهي معنى القلة وضيق النطاق .. والواقع أن ما في نصوص الشرع المطهَّر من تصورات عن الكون والمجتمع والفرد فهي محددة بمقتضى علم الدلالة، ولكن ليس كل تصور عن الكون والمجتمع والفرد محدوداً بما ورد به النص الشرعي ، بل خلق الله

الأنفس والآفاق، واستحث السمع والبصر والفؤاد والعقل للإصغاء والنظر والوعي والتفكر، ونتج عن ذلك مصنوعات ومخترعات واكتشافات كونية من تمكين الله القدري الكوني، وليست من تعليمه التفصيلي بالنص الشرعي.

وميزة ذوي المنطلقات الدينية الخالصة أن التصورات المحدودة لهم في دينهم عن الكون والمجتمع والفرد لا تُوقِفُ طموح السمع إلى الإصغاء، ولا طموح البصر إلى النظر، ولا طموح العقل إلى التفكر، ولا طموح الأنامل إلى الصناعات والمهارات.. وإنما المهم في النهاية توظيف السلوك البشري لإسعاد البشرية في دنياها وآخرتها .

قال **أبوعبدالرحمن** : تم القسم الأول ، وتم الفراغ منه فجر يوم الحجة المبارك الموافق بالتقويم ـ لا برؤية الهلال ـ يوم الأربعاء ٨/ ١٢/ ١٤٢٥هـ بالرياض ، ثم تمت المعاودة منتصف الليلة التي صبيحتها يوم الجمعة الموافق ١٧/ ١٢/ ١٤٢٥هـ [٢٨ يناير ٢٠٠٥م] بالرياض، والحمد لله رب العالمين، وسلام على عباده المرسلين .

* * *

[عن حسبانية العصر الحديث قال روجيه جارودي : « المبادئ التي كانت قد استقرَّتْ الآن استقراراً كاملاً بدت على أنها مجرَّدُ عاداتٍ تكنولوجيَّة ، أو على أنها آراء مُسبَقَة بالمعنى الحرفي لهذه الكلمة .. وبدا أكثرُ كلِّ ما كنا نتمسَّكُ به على أنه واضح لم نعد ننظر إليه إلا على أنه فكرة مسبقة ، وكل الأفكار المسبقة ليست إلا رواسب مصدرها التقاليد » .

نظرات حول الإنسان

ص٢٩-٣٠ .]

[تحوَّر مذهب البوذي زن الذي نشأ على يد غوتامه بوذا إلى مذاهب متضـــاربة ؛ فهو فلسفة الـتدروش ، وادِّعاء الجذب والتجلِّي ، والكشـــف (الاستنارة بعد مواصلة التأمل تحت شجرة بورتين المعابد ، أو الأثَّاب) .. والتأمل مطلب إنساني وفكري بوسائل البرهان العلمي، ولكن تأملهم صوفي ؛ لأن التأمل باطني ، وليس بحثاً شاقاً ولا إعمال فكر بالبرهان العلمي ، بل هو ذوق قلبي ارتدَّ عن استفتاء العقل الإنساني المشترك إلى دعاوى الذوق القلبي .. بل مقياس الوجود في الذات ، ومع هذا زعموها مُنعشةً للفكر من غير وساطة فكرية أو رمزية !!.

قال **أبوعبدالرحمن** : لا أعرف لهذا الانتعاش معنى، ثم تحوَّل عند اليابانيين إلى حركة عمل دؤوبة كزراعة الأرض مع احتفاظهم بنفي الاعتقاد بجدوى الجدل والنظريات ، بل المرجع لدعوى النفس والذوق الفردي .. وتميَّز عند بوذا بالذهول الفكري ، والغياب عن أحوال نفسه ، وهذا هو الفناء الصوفي الذي هو عريض الدعوى لدى متصوِّفٍ مرتزقٍ ، أو مجذوب ذي وسيط!![١١٤] .

* * *

---

(١١٤) انظر عنهم المعجم الموسوعي للمصطلحات الثقافية للدكتور ثروت عكاشة ص٧٤ / مكتبة لبنان ، والشركة المصرية العالمية للنشر/ لونجمان ٧٤ .]